

المواطنة الإعلامية

في العالم العربي



أ. د. عواطف عبدالرحمن

كلية الإعلام - جامعة القاهرة

مراجعة: م. م. م. م. م.

المواطنة الإعلامية فى العالم العربى

أ.د. عواطف عبد الرحمن

كلية الإعلام - جامعة القاهرة



بطاقة فهرسة

حقوق الطبع محفوظة

مكتبة جزيرة الورد

اسم الكتاب : المواطنة الإعلامية في العالم العربي
المؤلف : أ.د عواطف عبد الرحمن

رقم الايداع / ٢٠١٥/١٥٢٣١



مكتبة جزيرة الورد

القاهرة : ٤ ميدان حليم خلف بنك فيصل

ش ٢٦ يوليو من ميدان الأوبرا ت : ٠١٠٠٠٠٠٤٠٤٦ - ٢٧٨٧٧٥٧٤

Tokoboko_5@yahoo.com

الطبعة الأولى ٢٠١٥

تقديم

تمثل أزمة المواطنة الإعلامية في العالم العربي جذورها وأسبابها ومظاهرها وتداعياتها المحور الرئيسي في هذا الكتاب. إذ يتناول جذور الأزمة التي تتجسد في العلاقة الصراعية بين الحكام والصحافة فالثابت تاريخياً أن الصحافة تعد المهنة الوحيدة التي نشأت ومعها قيودها وتشريعاتها التي تستهدف محاصرة وتقييد حرية التعبير لدى الجموع العريضة من الجماهير سعياً إلى شل قدراتها على التعبير والدفاع عن حقوقها المجتمعية التي نصت عليها الدساتير. وتتنوع أشكال القيود وتباين صورها وتتراوح ما بين قيود تشريعية وإجراءات أمنية واختراقات سياسية واقتصادية وثقافية محلية وأجنبية وتستهدف جميعها تطويق وتقليص وإهدار حق الجمهور في المعرفة التي نصت عليها المواثيق الدولية والدساتير العربية. فضلاً عن تشويه مهنة الصحافة والإعلام وانتهاك حقوق الصحفيين والإعلاميين أنفسهم وتحويلهم إلى أبواق للدفاع عن أيديولوجية ومصالح الحكام والترويج لرؤى وأفكار ومصالح مراكز النفوذ الاقتصادي والسياسي والثقافي والإغفال العمدي وتهميش الواقع المجتمعي للجماهير وحقوقها المشروعة اقتصادياً وسياسياً وثقافياً. وتركز الفصول الخمسة الأولى على جذور وأسباب الأزمة وآليات تفعيلها دستورياً وقانونياً وتأثيراتها السلبية على الأداء الإعلامي ومسؤوليات الإعلاميين المهنية والمجتمعية. علاوة على دورها في اتساع الفجوة بين النخب العربية والجماهير. ولما كان هناك ضرورة علمية وأخلاقية تستلزم فتح أفق للتغيير وتصحيح المسار الإعلامي فقد شغل الفصل السادس هذه القضية. كما أن إبراز حتمية اللجوء إلى خطاب معلوماتي بديل جاء في الفصل السابع، ثم أتى ميدان التحرير كتجسيد

للثورات العربية في ضوء دوره كساحة مركزية لثورة ٢٥ يناير ٢٠١١ المصرية (الفصل الثامن). وتوالت فصول الكتاب بطرح قضايا الصراع التي حاصرت الثورات العربية وكان الإرهاب والحروب الأهلية آلية حاسمة في أيدي قوى الثورة المضادة لإجهاض ثمار التغيير الثوري المنشود (الفصل التاسع). ثم تصدرت قضايا الفقر والجوع ودور الإعلام في مصر (الفصل العاشر). ولم يكن ممكناً إغفال قطاع التعليم الجامعي وما أصابه من تدهور وفساد رغم تواصل نضال الجامعيين أساتذة وطلاباً من أجل استعادة الوجه العلمى والحضارى المضيء للجامعات المصرية (الفصل الحادى عشر).

وتتوجأ خاتمة الكتاب تأتى قضايا المرأة العربية والأفريقية وحقوقها المجتمعية والإعلامية في الفصول الخمسة الأخيرة حيث تم التركيز على الصور الإعلامية للمرأة والتحديات التي تعوق حصولها على حقوقها الأسرية والمجتمعية وفي قلبها حق المواطنة الإعلامية.

أهدى هذا الكتاب إلى الأجيال الجديدة من الشباب العربى الذين تصدروا ساحات النضال العربية واستشهدت طلائعهم الثورية دفاعاً عن حقوقهم في المواطنة وسعيًا لانتزاع مواقعهم المشروعة وأدوارهم في إعادة تشكيل أوطانهم بالعلم والإرادة الجماعية.

د. عواطف عبدالرحمن

البحر الأعظم - الجيزة

إبريل ٢٠١٥

(١)

أزمة المواطنة الإعلامية في العالم العربي

إذا كان العالم العربي قد شهد زخماً إعلامياً متعددًا غير مسبوق خلال حقبة النضال الوطني ضد الاستعمار شاركت فيه صحف الأفراد والأحزاب وسائر التيارات الفكرية والاجتماعية إلا أن هذا الزخم التعددي قد توارى واختفى خلال فترة الحكم الوطني بعد حصول الدول العربية على استقلالها وذلك بسبب سيطرة الاتجاهات الأحادية لدى نظم الحكم وتغيب قوى المعارضة الوطنية وحرمانها من حقوقها في حرية الرأي والتعبير والمشاركة في صنع القرارات الوطنية. وقد استمر هذا الوضع سائداً حتى تسعينيات القرن الماضي عندما نجحت قوى العولمة ومؤسساتها في إجبار معظم الدول العربية على التخلي عن كثير من وظائفها الاقتصادية والاجتماعية إلا أن الإعلام العربي ظل في أغلبه حكومياً مع السماح بوجود هامش محسوب للأحزاب والمستثمرين ورجال الأعمال ومع انطلاق موجات الديمقراطية وتصاعدها في مختلف أنحاء العالم في ظل ثورة الاتصال والمعلومات شهد العالم العربي موجة جديدة من التعددية السياسية الشكلية التي ظهرت بصورة فورية وأثمرت صوراً مختلفة من التعددية الإعلامية حيث اتسع نسبياً الهامش المسموح به لحرية الرأي والتعبير مع احتفاظ السلطة السياسية بترسانة القيود التشريعية المعادية للحريات.

وفي إطار التعددية الإعلامية الراهنة التي يشهدها العالم العربي برزت العديد من الاشكاليات المهنية التي كانت سائدة وازدادت وطأتها في ظل التطورات التكنولوجية والضغط الأجنبي من أجل الإصلاح الديمقراطي واستمرار قبضة الحكومات تشريعياً وأمنياً ومعلوماتياً مع ظهور مخاطر جديدة هددت حرية الرأي والتعبير في وسائل الإعلام تمثلت في النفوذ المتصاعد لرجال الأعمال والمستثمرين واختراقاتهم المتواصلة للإعلام العربي من خلال الإعلانات وإنشاء قنوات فضائية خاصة علاوة على محاولات شراء سكوت العديد من الإعلاميين.

هذا ولا شك أن استنهاض الإرادة الجماعية للإعلاميين والصحفيين العرب من أجل تطوير الإعلام العربي حتى يصبح قادراً على مواكبة التطورات العالمية من خلال الكفاءة المهنية والالتزام الأخلاقي والوعي بثقافة حقوق الإنسان كل ذلك يستلزم طرح بعض البدائل على النحو التالي:

أولاً: البدائل التشريعية:

سعيًا لإزالة التناقض بين منظومة التشريعات والقوانين التي تتحكم في الإعلام والصحافة العربية التي تركز على تعظيم هيمنة السلطة وبين تجليات الثورة التكنولوجية في مجال الاتصال والمعلومات التي تدعم قيمة الحرية يمكن بلورة منظومة من البدائل التشريعية والإعلامية التي اقترحها فقهاء التشريع والقانون المستنيرين ونخبة من علماء وأساتذة الإعلام وذلك على النحو التالي:-

أولاً: حرية إصدار الصحف والبت الإعلامي: وتعتبر هي المقدمة الأولى التي تستند عليها كافة الحريات الأخرى المرتبطة بحرية الرأي والتعبير في المجال الإعلامي إذ رغم مشروعية المخاوف التي تجعل المشرع العربي متردداً إزاء إطلاق حرية تملك وإصدار الصحف استناداً إلى الخوف من سيطرة رأس المال الأجنبي ومصالح المتحكمين في السوق العالمية إلا أن ثورة الاتصالات والتدفق اللامحدود

للمعلومات عبر قارات العالم قد أفقد المنظومة التشريعية المقيدة للحريات مبررات وجودها وإزاء تلك الحقيقة الساطعة لا بديل أمام الحكومات العربية إلا أن تسعى بجدية إلى تصفية ترسانة القيود التشريعية وتنقية القوانين المنظمة للعمل الإعلامى والصحفى من النصوص السالبة للحريات وذلك فى إطار الاستجابة للتحديات التى تواجه الإعلام والصحافة العربية فى ظل التحولات الدولية المعاصرة.

ثانياً: تفعيل التشريعات التى تنص على حق الصحفى فى الحصول على المعلومات خصوصاً وإن هذه التشريعات تفتقر إلى تحديد الآليات الضرورية لتفعيل هذا الحق فضلاً عن عدم تحديدها لنطاق ومفهوم سرية المعلومات التى لا يجوز نشرها أو بثها فى الصحافة والإعلام العربى الذى أدى إلى توسع السلطة التنفيذية فى فرض السرية على قطاع هائل من المعلومات تحت مسميات مطاطة تتعلق بالحفاظ على الأمن القومى والأمن العسكرى وهى فى الحقيقة تستهدف تأمين مصالح النظم الحاكمة علاوة على أن هذه المحظورات لم تعد صالحة للتطبيق فى ظل التقدم التكنولوجى الهائل فى وسائل الرصد والمراقبة وآليات الاختراق المعاصرة.

ثالثاً: إذا كان من غير المقبول دستورياً وأخلاقياً عدم التصدى للانحرافات المهنية التى تصدر من بعض الإعلاميين والصحفيين خصوصاً فيما يتعلق بجرائم السب والقذف المقترنة بسوء القصد، إلا أنه من غير المقبول أيضاً المبالغة فى تجريم الممارسات الإعلامية التى تسعى لتفعيل حرية الرأى والتعبير والتى تشكل جوهر مهنة الصحافة والإعلام باعتبارها مهنة رأى. وهنا تبرز الإشكالية الخاصة بقضايا جرائم السب والقذف سواء عن طريق النشر فى الصحف أو البث فى وسائل الإعلام المرئى والمسموع حيث يستلزم الأمر ضرورة تعديل مواقف المشرع العربى من جرائم النشر وذلك بالسعى الجاد من أجل إلغاء عقوبة الحبس للصحفيين والاكتفاء بعقوبة الغرامة مع التعويض المدنى وإلقاء عبء إثبات سوء نية الصحفى على سلطة الاتهام.

ومن هنا يأتي التشديد على ضرورة مواصلة الجهود من أجل إلغاء النصوص القانونية السالبة للحريات وضمان حماية الحقوق المهنية للصحفيين ليس لأهمية ذلك في حد ذاته ولكن لارتباط ذلك في الأساس بجوهر العملية الديمقراطية وكفالة تحقيقها في ضوء ما أقرته المواثيق العالمية بشأن ضمان حماية حقوق الإنسان وحرياته الأساسية.

البدائل المهنية:

أولاً: السعي الجاد لتحديث بيئة العمل الإعلامي في العالم العربي والتي تشمل تطوير البنية البشرية للإعلاميين والصحفيين العرب تأهيلاً وتدريباً وتسليحهم بالوعي بالقوانين المنظمة للعمل الإعلامي وتشجيعهم على ممارسة النقد البناء الملتزم للسياسات والممارسات السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية فضلاً عن ضرورة السعي الدؤوب لدمقراطية العلاقات المهنية داخل المؤسسات الإعلامية بين الإعلاميين ورؤسائهم وزملائهم وتدريبهم على مقاومة الإغراءات والضغط من جانب المصادر وذلك بتأمين حقوقهم الاقتصادية والمهنية ويتصدرها حقهم الأصيل في حرية الرأي والتعبير والمشاركة في صنع القرارات الإعلامية.

ثانياً: تحديث البنية التكنولوجية للمؤسسات الإعلامية إذ أدت التغيرات الهيكلية الناتجة عن استخدام التكنولوجيا الحديثة إلى ظهور أنماط جديدة للعمل الصحفي والإعلامي الذي يقوم على الجهد الجماعي. كذلك سيؤدي استخدام التكنولوجيا الرقمية إلى تغيير الشروط المهنية الواجب توافرها في الأجيال الجديدة من الإعلاميين حيث ستصبح اليد العليا للقيم والمعايير المؤسسية التي لا تكتفى بالكفاءة المهنية بل تتطلب أيضاً القدرة على المواجهة التنافسية في السوق الإعلامية المعاصرة.

ثالثاً: تنشيط دور النقابات والاتحادات الصحفية في العالم العربي والسعى لتحريرها من النفوذ الحكومي والاختراق المالي من جانب رجال الأعمال والمستثمرين وحث الصحفيين على مواصلة الجهد من أجل تفعيل ميثاق الشرف الصحفي التي تستهدف حماية حقوق الصحفيين وضمانات ممارسة المهنة والحفاظ على كرامتها وتراثها العريق في الدفاع عن حرية الرأي والتعبير والكشف عن الفساد ومساوئ الإدارة والظلم الاجتماعي والسعى لإعداد خطة قومية متعددة المستويات لتثقيف وتدريب الصحفيين تحت إشراف إتحاد الصحفيين العرب والنقابات الوطنية.

(٢)

الصحافة المصرية والحكام – إشكالية تتجدد

علاقة الصحافة المصرية بالحكام خلال قرنين

لعل المهنة الوحيدة في التاريخ التي نشأت ومعها قيودها هي مهنة الصحافة وقد جاءت القيود دوماً من جانب الحكومات والسلطة التي أدركت مبكراً القدرات الهائلة التي تملكها هذه المهنة في التأثير على الجماهير ولذلك تميزت العلاقة بين الصحافة والحكام منذ البداية بالطابع الصراعي الذي اتخذ عدة أشكال تراوحت ما بين القيود القانونية والتشريعية والممارسات السلطوية التي تستهدف محاصرة المهنة وتجميع تأثيرها بل وتوظيفها لخدمة أهداف الحكام وتبرير سياساتهم وتعبئة الرأي العام لمساندة مواقفهم وقراراتهم.

وعندما نستطلع المراحل التي مرت بها علاقة الحكومات بالصحافة المصرية منذ ظهورها في بدايات القرن التاسع عشر تصادفنا عدة حقائق:

أولاً:

١ - إن البداية الإعلامية في مصر كانت رسمية فالصحافة المصرية نشأت في أحضان الحاكم لتحقيق أهداف ترتبط باحتياجات الحاكم وليس تلبية لاهتمامات المحكومين . فقد ارتبط ظهور أولى الصحف المصرية والتي أطلق عليها (جرنال الخديوى) عام ١٨٢٧ (بعد استتباب الأمور لمحمد على ونجاحه في تأسيس الدولة

المصرية) بضرورة متابعة محمد على لشئون الأقاليم خاصة بعد اتساع نشاط أجهزة الدولة من خلال التقارير الدورية التي تحولت إلى صحيفة إخبارية تطورت إلى جريدة منتظمة أطلق عليها الوقائع المصرية واستمرت في الصدور منذ ٣ ديسمبر ١٨٢٨ حتى اليوم وجدير بالذكر إن محمد على كان حريصاً على متابعة المواد الصحفية قبل نشرها رغم أن الوقائع كانت صحيفة خيرية في المقام الأول. وجرى العادة على أن يرفع ناظر الوقائع مسودات الصحيفة قبل الطبع ليقرأها الوالي ويقضى فيها برأيه.

وهكذا نجد أن الصحافة المصرية نشأت في كنف الحاكم واستخدمها كآلية أساسية في الدعاية لأعماله وإنجازاته وأخبار المحكومين بتعليماته ومراسيمه وأوامره ونواهيته. وقد ألفت هذه النشأة بظلالها السلبية على كافة المراحل التالية في تاريخ الصحافة المصرية.

٢- في إطار التدهور الذي ساد كافة مناحي الحياة المصرية في عهد عباس الأول حيث تم إقصاء الخبراء والأجانب وإغلاق المدارس والمصانع كان من الطبيعي أن تتأثر أوضاع الصحافة فلم تصدر الوقائع معظم أيام حكمه ولم يطبع منها إلا أعداد محدودة تنفيذاً لتعليمات عباس الأول الذي كان يرى أن الصحيفة الرسمية يجب ألا يقرأها سوى الخاصة من كبار ضباط الجيش. أما موقف خلفه سعيد باشا فقد اتسم موقفه بالتناقض إزاء الصحافة إذ أصدر في بداية حكمه الأوامر بالاهتمام بالصحافة وترقية محرريها ثم بدأ يتخلص من مطبعة بولاق بعد توقفها لمدة عام فأهداها إلى صديقه عبد الرحمن رشدي عام ١٨٦٢ وقد انعكس ذلك على جريدة الوقائع المصرية حيث توقفت عاماً كاملاً عن الصدور مع توقف المطبعة ثم عادت للظهور.

بعد أن سمح الخديو إسماعيل لبعد الرحمن رشدي بإصدارها لحسابه باعتبارها صحيفة شبه رسمية ابتداء من فبراير ١٨٦٣ ثم استعادتها الحكومة في نوفمبر ١٨٦٥.

وقد شهد عهد سعيد باشا صدور أول تشريع للمطبوعات ويقضي بأن لا يطبع أو ينشر جرنال أو إعلان دون الحصول على رخصة. وفي حالة المخالفة يتم إغلاق المطبعة ومصادره المطبوع. ولم يطبق هذا التشريع إلا على المصريين أما الأجانب الذين يصدرون صحفاً في مصر فقد طبق عليهم التشريع العثماني الخاص بالصحافة الصادر عام ١٨٥٧.

٣- شهد عصر الخديو إسماعيل تعدد أشكال الملكية الصحفية والتي تراوحت ما بين صحف رسمية تصدرها الدولة وصحف أهلية أو خاصة يصدرها الأفراد. وانطلاقاً من إيمان الخديو إسماعيل بأهمية الدور الذي تقوم به الصحافة في تعزيز سلطاته وتحقيق حلمه في إقامة الدولة العصرية وتحويل مصر إلى قطعة من أوروبا لجأ إلى سلاح المنح والرشاوى للصحف التي تصدر في الأستانة وتقدرها المصادر التاريخية بحوالي ١٢ مليون جنيه كذاً اعتمد على نفس الأسلوب في استمالة الصحف الكبرى في العواصم الأوروبية التي استعان بها للضغط على الدولة العثمانية. وقد اضطر إلى تخفيض هذه الإعانات وإلى إلغاء بعض الاشتراكات في العديد من الصحف بعد الأزمة الاقتصادية وفرض الرقابة الثنائية على مصر. وعندما قررت وزارة نوبار إلغاء هذه الإعانات أمر إسماعيل بأن تصرف من مخصصاته.

وقد أولى إسماعيل عناية خاصة لجريدة الوقائع. فأختار لها أفضل المحررين والموظفين وبذل لهم في سخاء لم يعهدوه من قبل. وقد عبرت الوقائع خير تعبير عن سياسة الخديو الداخلية والخارجية ودافعت عنه ضد خصومه من الصحف الأجنبية

في مصر والخارج. وقد أدى استفحال الأزمة الاقتصادية في عصر إسماعيل إلى توقف الصحف الرسمية عن الصدور باستثناء الوقائع المصرية. كما أدى انتشار الصحافة الأهلية والتي حملت لواء المعارضة ضد الحكومة إلى قلة انتشار وتوزيع الصحف الرسمية حيث لم يعد الرأي العام يستسيغ وجودها وخضوعها للاتجاهات الرسمية. ورغم الدور الهام الذي قامت به الصحافة الأهلية في خلق المعارضة السياسية داخل وخارج أول مجلس نيابي شهدته الحياة السياسية في مصر عام ١٨٦٦ إلا أن الخديو إسماعيل حرص على أن تلتزم هذه الصحف بحدود السياسة العامة التي رسمها للدولة ولذلك بادر إلى إغلاق صحيفة الأفكار التي أصدرها إبراهيم الميличи وعثمان جلال عام ١٨٦٩ عندما وجهت النقد لبعض الأمور في الجيش.

ويمثل عام ١٨٧٧ البداية الحقيقية لظهور الصحف الأهلية التي قامت بدور هام في الهجوم على أنظمة الحكم المطلق وسياسة إسماعيل التي أدت إلى التدخلات الأجنبية في أمور البلاد ومن أبرز هذه الصحف مصر والوطن وأبو نضارة والتجارة ومرآة الشرق والاسكندرية والكوكب المصري. كما أسهمت هذه الصحف في إيقاظ الشعور القومي لدى المصريين ونبهت الشعب المصري إلى حقه في مشاركة الحاكم في إدارة شئون الدولة عن طريق مجلس نيابي يمثل الأمة وينوب عنها.

٤- بدأ الخديو توفيق عصره بطرد الأفغانى من مصر إدراكاً منه لقوة تأثيره في الرأي العام وألزم الصحف جميعاً بنشر بيان الحكومة الخاص بطرد الأفغانى وتم تعطيل الصحف التي رفضت الامتثال لقرار الحكومة خصوصاً مرآة الشرق كما تم تعطيل جريدة التجارة مما اضطر أديب إسحاق إلى السفر إلى باريس وإصدار صحيفة (مصر القاهرة) ديسمبر ١٩٧٩ وخصصها للهجوم على وزارة رياض باشا الذي اتسم عهده بالاستبداد حيث عطل مجلس شورى النواب وإيجاد المراقبة الثنائية

على ميزانية مصر ونالت الصحافة القدر الأكبر من الإرهاب الذى تمثل فى كثرة الإنذارات والتعطيل والمصادرة. وقد شهدت هذه الفترة ظهور حركة الجيش بزعامة أحمد عرابى الذى قام بطبع المنشورات السرية وتوزيعها فى أنحاء البلاد لتوكيل عرابى فى النيابة عنهم فى مطالبهم الوطنية وتتميز هذه الفترة بالاستخدام الواسع للصحافة من جانب القوى السياسية المتصارعة فشرى باشا له الصحف التى تتحدث بلسانه وأهمها صحيفة مصر لأديب إسحاق كما كان لرياض باشا الصحفيون الذين يدافعون عن سياسته بداية بمحمد عبده وانتهاء بالشيخ حمزة فتح الله وكذلك كان للعرايين صحفهم القوية وأهمها التنكيث والتبكيث والطائف والنجاح والمفيد.

ولعل اخطر حدث تواكب مع الثورة العرابية صدور أول قانون شامل للمطبوعات فى نوفمبر ١٨٨١ حوى ثلاثة وعشرين مادة. وقد استهدفت حكومة شريف باشا بإصدارها هذا القانون السيطرة على الغليان السياسى الذى كان تشهده البلاد آنذاك وكانت الصحافة تمثل شراراته المتوهجة. وقد استهدف أساساً صحف العرايين الطائف والمفيد كما طبق على البرهان والحجاز وهناك علاقة وثيقة بين صدور هذا القانون وبين الهجوم الحاد الذى شهدته الصحافة ضد الأجانب والامتيازات التى كانوا يتمتعون بها على حساب خزانة الدولة. كما أقدمت بعض الصحف على الهجوم على السلطان العثمانى فأصدرت الحكومة إخطاراً إلى كافة الصحف التى تصدر بمصر تهددها بالعقاب الشديد فى حال مساسها بالحقوق السامية للدولة العليا وبعد سقوط وزارة شريف باشا استخدمت وزارة البارودى قانون المطبوعات ١٨٨١ على نطاق واسع ضد الصحف المعارضة لها خصوصاً صحف الشوام وقد طالت هذه الإجراءات الصحف المؤيدة للثورة العرابية مثل المفيد والفسطاط.

٥- بعد اندلاع المعارك بين المصريين والانجليز في يوليو ١٨٨٢ أعلنت الأحكام العرفية وفرضت الرقابة على الصحف وتوقفت كافة الصحف الوطنية بعد إعلان الاحتلال البريطاني لمصر وتعيين كرومر أول حاكم بريطاني لمصر.

ورغم أن كرومر ظل يتجاهل أمور الصحافة في تقاريره إلى حكومته منذ توليه عام ١٨٨٣ حتى عام ١٩٠٣ حيث كان يؤكد أنه قد منح الصحافة المصرية قدراً كبيراً من الحرية ضماناً للتعرف على اتجاهات الرأي العام المصري إلا أن الواقع قد كذب ما ادعاه كرومر من أن الصحافة في عهده قد تمتعت بحريتها كاملة إذ تعرضت الصحافة آنذاك لكثير من صنوف الاضطهاد تمثلت في الإنذارات وقرارات التعطيل مثل صحف الزمان والوطن والقاهرة كما لم تسلم الجرائد الأجنبية من إجراءات المصادرة مثل اليوسفور اجيسييان الفرنسية وكان مسموها للصحف أن تتناول بحرية المسائل الثانوية فقط أما إذا تعرضت لمناقشة أوضاع الاحتلال أو ممارساته كانت الإنذارات وقرارات الإلغاء والمصادرة تنهال عليها.

٦- تولى عباس حلمي الثاني الأريكة المصرية بعد وفاة الخديو توفيق وقد استمر حكمه من يناير ١٨٩٢ حتى ديسمبر ١٩١٤ عندما أعلنت الحماية البريطانية على مصر وثم عزله في بداية الحرب العالمية الأولى. وقد استقبلت الجماهير المصرية الخديوي عباس حلمي استقبالاً حسناً خصوصاً بعد إعلان الرفض لسياسة والده وموقفه الإيجابي من النديم وسائر مسجونى الثورة العراقية. وقد كان لابد أن يصطدم بسلطة الاحتلال ممثلة في كرومر ومع ذلك فقد تحالف الخديو عباس حلمي مع الحركة الوطنية التي استأنفت نشاطها بعد توقف دام أكثر من عشر سنوات واستمر التوافق بين الخديوي والحركة الوطنية حتى أزمة قاشوده ١٨٩٨ ثم بدأ يتباعد تدريجياً وعلاقته بمصطفى كامل. وهكذا يستهل القرن العشرين باستسلام الخديوي للسلطة الفعلية في البلاد الممثلة في الاحتلال. وقد استمعت الصحافة

الوطنية بهامش كبير من الحرية خلال فترة الخلاف بين الخديوى عباس حلمى والمعتد البريطاني كرومر خصوصاً صحيفة المؤيد التى كانت تتلقى دعم (مساندة) الخديوى.

٧- بقيام الحرب العالمية الأولى فى أغسطس ١٩١٤ دخلت مصر طوراً جديداً من أطوار حياتها السياسية فبعد أن كانت مستقلة استقلالاً مكفولاً بمعاهدة ١٨٤٠ ولا يقيدته سوى السيادة الاسمية لتركيا فى ظل الاحتلال البريطانى الذى عصف باستقلالها عام ١٨٨٢ وفى ظل الحماية التى أعلنت عقب نشوب الحرب العالمية الأولى تحولت مصر إلى دولة خاضعة خضوعاً كاملاً للسيطرة البريطانية وأصبح المعتد البريطانى هو الحاكم الفعلى للبلاد. وقد عانت الصحافة معاناة كبيرة بعد فرض الأحكام العرفية والرقابة على الصحف عقب إعلان الحرب العالمية الأولى وكانت معظم الصحف المصرية تصدر فى كثير من الأحيان بصفحات بيضاء نتيجة تدخل الرقيب. وقد توقفت معظم الصحف الوطنية عن الصدور أثناء سنوات لحرب فاحتجبت الجريدة كما توقفت المؤيد عام ١٩١٥ ولم يبق فى الساحة سوى الصحف المؤيدة للاحتلال مثل المقطم والوطن والصحف التى هادنت الاحتلال مثل الأهرام والأهالى.

٨- بدأت ثورة ١٩١٩ بمظاهرات سلمية قام بها طلبة الجامعة مع بعض المدارس الثانوية احتجاجاً على القبض على زعماء الوفد والمطالبة بالاستقلال التام المجرد من التبعية لتركيا ورفض أى نفوذ أجنبى وقد كرسى هذه الثورة الوحدة الوطنية بين المسلمين والأقباط الذين واجهوا رصاص الإنجليز فى إطار قومى متماسك نجح فى إسقاط المحاولات البريطانية لبث الفتنة الطائفية بين عنصرى الأمة وقعت أحداث الثورة دون تدبير من الوفد فقد سيطرت اللجان الثورية والجمعيات السرية وغيرها من التنظيمات التى أفرزتها ظروف الثورة وإن كان

عبد الرحمن فهمى قد قام بدور هام في دعم هذه التنظيمات ولم يبق أمام سلطات الاحتلال رغم كثرة الأساليب الوحشية التى اتبعتها سوى الاستجابة لمطالب المصريين فأعلنت الإفراج عن سعد زغلول وأصحابه والسماح لهم بالسفر لعرض قضية البلاد على مؤتمر الصلح المنعقد في باريس وقد قام الوفد في باريس بالدعاية للقضية المصرية من خلال المؤتمرات الصحفية والكتابة في الصحف الفرنسية. وإزاء نشاط الوفد في الداخل والخارج قررت السلطات البريطانية إرسال لجنة تحقيق إلى مصر هى لجنة ملنر لبحث أسباب الثورة وتقرير نظام الحكم الملائم للمصالح البريطانية وفي تلك الفترة بسط الاحتلال بعض الحرية للصحافة المصرية للتعرف على اتجاهات الرأي العام وإزاء مقاطعة الشعب المصرى للجنة ملنر اضطرت إلى التفاوض مع الوفد المصرى برئاسة سعد زغلول وانتهت أول حلقة من المفاوضات المصرية البريطانية بالفشل بسبب تعنت الجانب البريطانى ورفضه الاعتراف لمصر باستقلالها التام غير المنفوص وعادت الرقابة على الصحف الوطنية في ٦ مارس ١٩٢٠ أى نفس اليوم الذى غادرت لجنة ملنر البلاد واجتمع مديرو الصحف وقرروا حجب صحفهم ثلاثة أيام احتجاجاً على إعادة الرقابة من ٧-٩ مارس ١٩٢٠ عدا صحيفتي المقطم والوطن.

وعندما تولى عدلى يكن رئاسة الوزارة في مارس ١٩٢١ عمل على إلغاء الرقابة على الصحف كوسيلة لتخفيف تيار الكراهية ضد الحكومة في مايو ١٩٢١ إلا أن الصحف لم تبد ارتياحها لهذا الإلغاء مادام سيف قانون المطبوعات ظل مسلطاً على رقابها. ولقد تحقق ما حذر منه الصحفيون إذ استمرت قرارات المصادرة والإيقاف ضد الصحف المعارضة لحكومة عدلى يكن وكانت وزارة الداخلية ترفض الترخيص بإصدار صحف جديدة إذا تبين لها أن أصحابها لهم اتجاهات وفدية ولكن إذا رأت أن طالب الترخيص سيدعم موقف الحكومة فإنها كانت تسارع إلى

تلبية طلبه. وهكذا لم تتمتع الصحافة بأى قدر من الحرية فى هذه الفترة حتى فترات إلغاء الرقابة إذ كانت قرارات المصادرة والتعطيل أشد وطأة على الصحف.

وعند صدور تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ والذى نص على إلغاء الحماية على مصر والاعتراف باستقلالها مع تحفظات أربعة تترك لمفاوضات قادمة وقفت معظم الصحف الوطنية ضد التصريح عدا صحف الاحتلال وعلى رأسها المقطم. ويمثل التصريح نقطة تحول هامة فى حياة مصر السياسية فقد أعقب مرحلة كفاح شعبى تجاوزت السنوات الثلاث وترتب عليه نتائج أهمها إلغاء الحماية وان كان لم يحقق الاستقلال التام وقد استهدفت بريطانيا بهذا التصريح شغل المصريين بالأحوال الداخلية والخلافات الحزبية حتى تتمكن من السيطرة على الموقف. وعمل الاحتلال البريطانى على دعم نفوذ النظام الملكى وحماية الأوضاع الطبقيّة السائدة من خلال قانونين الأول رقم ٣٢ لعام ١٩٢٢ الذى رفع عقوبة التطاول على الحكومة الخديوية إلى التطاول على الملكية إلى ٥ سنوات كما رفع القانون الثانى (رقم ٣٧ لعام ١٩٢٢) جريمة التحريض على كراهية الحكومة من سنتين إلى ٥ سنوات ويطبق على جرائم نشر الأفكار المناهضة لمبادئ الدستور،

وقد ظلت الأحكام العرفية مطبقة على الصحافة إلى أن تم إلغاؤها فى ٥ يونيو ١٩٢٣ حيث أعيد العمل بقانون المطبوعات إلى أن أصبح الدستور نافذ لمفعول منذ اجتماع البرلمان فى ١٥ مارس ١٩٢٤.

ونصت المادة ١٥ من الباب الثانى فى الدستور (على أن الصحافة حرة فى حدود القانون وأن الرقابة على الصحف محظورة وإنذار الصحف أو وقفها أو إلغاؤها بالطريق الإدارى محظور أيضاً) ولكنه أضاف تحفظاً هاماً هو (إلا إذا كان ذلك ضرورياً لحماية النظام الاجتماعى) وكان الهدف من إدراج هذا التحفظ محاربة النشاط الاشتراكى والشيوعى الذى كان قد بدأ يعبر عن نفسه منذ ثورة ١٩.

وعلى الرغم من هذه السلطة التي خولها الدستور للإدارة فقد استمعت الصحافة بحقها في حرية التعبير عن الرأي في الفترة التي طبق فيها الدستور ولم تلجأ الحكومات إلى المنع الإداري وإن لم يمنعها ذلك من اللجوء إلى القضاء وحينما رأت الحكومة أن القضاء غير كاف وأنه لابد من إجراء رادع تتخذه ضد الصحف المعارضة فإنها أعتدت على حرية الصحافة في إطار اعتدائها على الحياة النيابية وتعطيلها الدستور أو إلغائه ولم يحدث هذا إلا في فترات الانقلاب على الحياة الدستورية وإقامة الحكم الدكتاتوري في عهدى محمد محمود وإسماعيل صدقي وعلى الرغم مما لاقته الصحافة من الأذى وصنوف الإرهاب والتعطيل على يد حكومة محمد محمود والتي ألغت رخصة مائة صحيفة وعطلت وأنذرت جميع صحف المعارضة مثل روزاليوسف ووادي النيل وكوكب الشرق والوطن إلا أن الصحافة لم تتعاون مع النظام. بل ساهمت في كشف حقيقة النظام وتعبئة الرأي العام ضده وإنهائه، ولكن سرعان ما تأمر القصر مع سلطات الاحتلال لإقامة حكم دكتاتوري جديد تمثل في مجيء إسماعيل صدقي الذي ألغى معظم مكاسب الحركة الوطنية في صراعها ضد الاحتلال فألغى دستور ١٩٢٣ واستبدل به دستور ١٩٣٠ الذي تضمن مادة جديدة تنص على جواز تعطيل الصحف بقرار من محكمة الاستئناف بناء على طلب النيابة العامة لحماية النظام الذي قرره الدستور من الكراهية. ولما رأى أن المحاكمات القضائية غير كافية للحد من حرية الصحافة لجأ إلى ما أسماه المنع والوقاية للحد من حرية الصحافة عن طريق التعطيل وقد استخدمت هذه الوسيلة أسوأ استخدام فعطلت الصحف بالعشرات وقد لجأ أصحاب الصحف المعطلة إلى الاتفاق مع أصحاب الصحف التي لم يكن لها أي لون سياسى ولم تكن منتظمة في صدورهم وأصدروها حاملة لأفكارهم السياسية المناهضة لحكومة إسماعيل صدقي ولكن نالها ما نال الصحف الوفدية فكانت

قرارات التعطيل تصدر تباعاً حتى بلغ عدد الصحف المعطلة عشرين جريدة يومية وستين مجلة أسبوعية في نهاية عام ١٩٣٠ وقد خاض الصحفيون في تلك الفترة معارك شرسة ضد الحكومة والإدارة والبوليس مما دفع الحكومة إلى إصدار المزيد من القوانين التي تستهدف الحد من حرية الصحافة والتضييق عليها بكل الوسائل المشروعة وغير المشروعة. وقد شملت القوانين التي صدرت كل من قانون العقوبات والمطبوعات مستهدفة وضع الصحافة بين شقى الرحا. ورغم أن الصحافة لم تستسلم إزاء هذه القوانين الجائرة ولكن لها تأثيراتها السلبية على الصحافة والدفاع عن حرية الوطن واستقلاله بخوض معارك ضارية دفاعاً عن الديمقراطية وحرية الصحافة.

ولم يكن ممكناً استمرار هذه الأوضاع إذ ما أن بدأت حركة الإرهاب تنحسر حتى سارعت الصحافة إلى النهوض من كبوتها وشاركت سائر القوى الوطنية في معركة القضاء على حكم صدقي وشيئاً فشيئاً بدأت تستعيد حرياتها المهددة خاصة بعد عودة دستور ١٩٢٣ في عهد وزارة توفيق نسيم في نهاية عام ١٩٣٥ ثم دخول البلاد في مرحلة جديدة بدأت بعودة الوفد إلى الحكم وتكوين جبهة وطنية من الوفد والأحرار الدستوريين وحزبي الشعب والاتحاد وبعض المستقلين وبدء التفاوض مع بريطانيا من أجل عقد معاهدة ١٩٣٦ التي فرضتها الظروف الدولية آنذاك. ورغم مشاركة جميع الأحزاب ما عدا الحزب الوطني في المباحثات الخاصة بالمعاهدة إلا أن مواقف الأحزاب وصحفها اختلفت بعد توقيع المعاهدة وقد أدت مبالغة أنصار المعاهدة في تمجيدها والإشادة بها إلى مبالغة معارضيها في الهجوم عليها والتنديد بها وقد تزعم هذا الهجوم محمد حسين هيكل من خلال جريدة السياسة.

٩- بقيام الحزب العالمية الثانية في سبتمبر ١٩٣٩ أعلنت الأحكام العرفية وفرضت الرقابة على الصحف والبريد وقد تأكد المصريون أثناء الحرب من حقيقة

الاستقلال المنصوص الذي حصلوا عليه طبقاً لنصوص معاهدة ١٩٣٦ حيث أصبحت مصر قاعدة حرية للحلفاء وما أن انتهت الحرب ورفعت الرقابة على الصحف في ٩ يونيو ١٩٤٥ حتى بدأت الصحافة خاصة الصحف الوفدية حملة قوية تطالب حكومة النقراشي بالسعى لتعديل معاهدة ١٩٣٦. وقد شهدت هذه المرحلة تصاعد المواجهات بين الحركة الوطنية.

وكانت الحركة الوطنية قد نالت زخماً وحيوية غير مسبوبة بظهور ومشاركة القوى السياسية الجديدة الممثلة في الإخوان المسلمين والماركسيين ومصر الفتاة والتي قابلها تآكل وتراجع القوى السياسية التقليدية (الوفد وأحزاب الأقلية) خصوصاً بعد إقدام الوفد وهو حزب الأغلبية على إبرام معاهدة ١٩٣٦ ونشوب الانشقاقات داخله مع تسرب العناصر الإقطاعية إلى مبادئه بالإضافة إلى قصر الفترات التي استطاع فيها أن يتولى الحكم وذلك مع استمرار السيطرة البريطانية والدوران في حلقة المفاوضات وتفاقم التناقضات الطبقية وتردى الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية علاوة على ضعف الملك واستسلامه التام لتدخل الحاشية ورجال القصر في شئون الحكم إلى درجة عزل الوزارات. وقد شهدت الوزارة الوفدية ١٩٤٢-١٩٤٤ صراعاً مريعاً مع الملك انتهى بإقالة الحكومة الوفدية في ١٩٤٤. وقد توجت حالة السخط والغليان الشعبي ضد الاحتلال والقصر وتردى الأوضاع السياسية والاقتصادية بمظاهرات الطلبة والعمال التي شكلت انتفاضة ١٩٤٦ وشاركت الصحافة المصرية بمختلف انتماءاتها وتوجهاتها في تغطية أبناء المظاهرات بصورة إيجابية فعالة انتهت باستقالة حكومة النقراشي وتولى إسماعيل صدقي مما أدى إلى مصادرة صحف الإخوان المسلمين والوفد المصري وصحف اليسار المصري (الضمير والفجر الجديد) وعلى أثر فشل مفاوضات صدقي بيفن ١٩٤٦ بدأت الصحف المصرية حملاتها ضد استمرار سياسة المفاوضات والمطالبة

باللجوء إلى الأمم المتحدة مما اضطر حكومة النقراشى التى تشكلت بعد استقالة صدقى إلى عرض القضية أمام مجلس الأمن وقامت الصحف بتقديم أخبار تحليلية شاملة للقضية المصرية أثناء عرضها على المجلس طوال الفترة من ٥-٢٨ أغسطس ١٩٤٧.

وقد أدى الفشل الذى منيت به القضية المصرية فى مجلس الأمن إلى ازدياد العداء ضد بريطانيا واستمرار الحملات الصحفية ضدها. استمر التوتر السياسى يكتسح البلاد إلى أن أعلن النحاس فى أكتوبر ١٩٥١ عن إلغاء معاهدة ١٩٣٦ واتفاقتى ١٨٨٩.

وبسبب الدور الوطنى المتصاعد الذى شاركت من خلاله الصحافة المصرية فى أحداث هذه الحقبة الهامة (حقبة الأربعينيات) فى تاريخ مصر ظهرت محاولات جديدة لتكجيلها تمثلت فى المشروع الذى تقدم به أحد النواب الوفدين الذى يبيح للسلطات الإدارية تعطيل الصحف أو إلغائها وذلك فى شهر يوليو ١٩٥١ وقد لاقى المشروع معارضة شديدة داخل مجلس النواب كما أعلن مجلس نقابة الصحفيين معارضته للمشروع وتأليف لجنة لمراجعة قانون المطبوعات بهدف تعديله مما اضطر النائب إلى سحب المشروع.

ثورة يوليو والصحافة المصرية

يلاحظ أن هناك اتفاقاً بين معظم الدراسات والبحوث التي تناولت ثورة يوليو على حقيقة محورية تتلخص في أن القيادة السياسية لثورة يوليو لم تطرح تصوراً سياسياً أو فلسفة اجتماعية محددة إنما بدأوا بالممارسة المباشرة ملتزمين منهج التجربة والخطأ ولذلك يمكن القول أن التوجه الفكري والسياسي لقيادة ثورة يوليو قد تبلور من خلال الممارسات العملية ولم ينبثق عن التزام أيديولوجي سابق ويمكن إرجاع البداية الصدمية التي تميزت بها العلاقة بين قادة ثورة يوليو والصحافة المصرية في السنوات الأولى من الثورة إلى غياب التصور الاستراتيجي لدى قيادة الثورة عن كيفية التعامل مع القوى السياسية التي كانت تتحكم آنذاك في الواقع المصري بمختلف قطاعاته السياسية والإعلامية مما أسفر عن وقوع العديد من الصدمات التي كانت الصحافة أبرز مجالاتها. علاوة على الاختلاف الجذري بين توجهات النخبة العسكرية وحادثة تعاملهم مع رجال السياسة والصحافة وبين هؤلاء الآخرين الذين لم يعتادوا هذا النمط من السلوك المتشرب بالروح العسكرية وما عرف عنها من نزوع إلى العنف والشدة والتسلط. ومثلما بدأت ثورة يوليو دون خطط محددة ذات أولويات وبرامج فيها عدا المبادئ الستة التي اتسمت بالعمومية كذلك لم يكن لها تنظيم سياسي يجسد أهدافها وبرامجها وبالمثل لم تكن تملك صوتاً إعلامياً مستقلاً وكان من الصعب أن تستقطب إحدى الصحف القائمة كي تجعل منها لساناً ناطقاً باسم الثورة. وإزاء روح العداء التي تصاعدت بينها وبين الصحف الحزبية آنذاك لم يكن أمامها مخرج سوى اللجوء إلى إصدار صحف جديدة تعبر عنها

وتحوض معاركها ضد خصومها من رجال الأحزاب والسياسيين والصحفيين الذين كانوا يحتكرون العمل السياسي والصحفي في مجتمع ما قبل الثورة. وقد كانت مجلة التحرير هي باكورة الإصدارات الصحفية باسم الثورة وصدرت في سبتمبر ١٩٥٢ كمجلة نصف شهرية عن القوات المسلحة وتلتها جريدة الجمهورية (ديسمبر ١٩٥٣) وقد شهدت هذه المرحلة صدور مجلة الثورة (يناير ١٩٥٤) كلسان ناطق باسم منظمات الشباب وانتهت هذه المرحلة (١٩٥٢-١٩٥٤) باختفاء الصحف الحزبية وظهور صحف جديدة ناطقة باسم الثورة هي التحرير والجمهورية والثورة واستمرار المؤسسات الصحفية التقليدية ذات الملكية الخاصة مثل دار الهلال والأهرام وأخبار اليوم وروزاليوسف وقد سجلت هذه المرحلة تصاعد أزمة الثقة بين النخبة العسكرية الحاكمة وبين رجال الصحافة.

وبعد أن حسمت أحداث أزمة مارس ١٩٥٤ لصالح التيار الشمولى داخل النخبة العسكرية الحاكمة حيث تمت تصفية بقايا الخريطة السياسية القديمة وأنصارها من العناصر العسكرية ذات التوجه الديموقراطى كما اختفت الأصوات التى دافعت عن الديموقراطية وحق الشعب المصرى فى تكوين أحزابه والتى نادى بإلغاء الأحكام العرفية. ويمكن اعتبار الفترة التالية لأحداث مارس ١٩٥٤ حتى عام ١٩٦٠ امتداداً لها من زاوية استمرار النخبة العسكرية فى الطور التجريبي خصوصاً فى ممارساتها السياسية مع عدم الوضوح فى توجهاتها الاقتصادية. وقد توابك ازدياد تدخل الدولة فى تخطيط وتوجيه الاقتصاد القومى مع بدء تدخلها الفعلى فى السيطرة على وسائل التوجيه الإعلامى والثقافى فقد نشأت وزارة الثقافة لأول مرة فى تاريخ مصر عام ١٩٥٧ فى نفس العام الذى أنشئت فيه وزارة الصناعة وكتلتها ترمز إلى معنى واحد هو تزايد تدخل الدولة فى توجيه الاقتصاد القومى والثقافة القومية كذلك شملت قوانين التأمين الأولى بعض المشروعات الاقتصادية

الهامة في عام ١٩٦٠ وتأميم جميع دور الصحف لصالح التنظيم السياسي (الاتحاد القومي آنذاك) ويعتبر هذا القانون أهم حدث في تاريخ الصحافة المصرية المعاصرة وقد حدد هذا القانون بصورة قاطعة إطار العمل والملكية وعلاقة الصحف بالسلطة السياسية. إذ نص على تبعية الصحف للاتحاد القومي سواء من ناحية الملكية أو تراخيص الصدور أو اشتراط عضوية الصحفيين للاتحاد القومي واشتراط تعيين رؤساء مجالس إدارات المؤسسات الصحفية كي تتولى الشؤون الإدارية والقانونية نيابة عن الاتحاد القومي. ورغم أن صيغة الاتحاد القومي قد تم اقتباسها من التجربة السالازارية في البرتغال غير أن مسوغات قانون تنظيم الصحافة (مايو ١٩٦٠) تتشابه إلى حد بعيد مع تراث التجربة اللينينية في الصحافة السوفيتية التي استندت إلى مبدأ تحرير الصحافة من سيطرة رأس المال وسيطرة الأفراد توطئة لتسخيرها لخدمة أهداف ومصلح الطبقة العاملة. ولم تكتف المذكرة التفسيرية بإبراز ضرورة سيطرة الدولة على وسائل الإعلام من ناحية الملكية بل أشارت إلى ضرورة التبعية السياسية والفكرية من جانب الصحف للتنظيم السياسي الحاكم. وهنا يبرز لنا كيف تم استيعاب الصحافة لصالح السلطة السياسية الحاكمة من خلال قانون تنظيم الصحافة مثلما تم استيعاب السلطة التشريعية والتنفيذية لصالح سلطة رئيس الجمهورية من خلال الدستور الذي نص على تشكيل مجلس نيابي هو مجلس الأمة الذي يملك رئيس الجمهورية سلطات حله (دستور ١٩٥٦ المادة ١١١).

وقد طرح عبد الناصر تصوره الكامل للدور الذي ينبغي على الصحافة المصرية أن تضطلع به. وذلك في الاجتماع الذي عقده مع رؤساء مجالس إدارات الصحف ورؤساء التحرير في مايو ١٩٦٠. ويعتبر هذا الحديث وثيقة هامة تحدد رؤية القيادة السياسية للثورة لدور الصحافة وعلاقتها بالسلطة السياسية. وقد أعربت معظم الصحف المصرية عن ترحيبها بقانون تنظيم الصحافة وبرز ذلك

الترحيب من خلال العديد من مقالات وأعمدة كبار الصحفيين ورؤساء التحرير وفي أعقاب إقرار الميثاق الوطني (مايو ١٩٦٢) نشأ الاتحاد الاشتراكي الذي قام على أساس تحالف قوى الشعب العاملة وقد أكد الميثاق ملكية الدولة لوسائل الإعلام وعلى الأخص الصحف وكانت هذه الملكية قد تحققت منذ صدور قانون تنظيم الصحافة في مايو ١٩٦٠ وحدد الميثاق مجموعة الضوابط التي تحكم الممارسات الصحفية مشيراً إلى عدم السماح بتوجيه النقد لأسس النظام السياسي الذي يستند إلى تنظيم سياسي واحد يقوم على تحالف قوى الشعب العاملة وكذلك لم يكن مسموحاً بتوجيه النقد للنظام الاجتماعي الذي يقوم على تزوير الفوارق بين الطبقات أو رفض القطاع العام باعتباره ركيزة النظام الاقتصادي ولكن كان من المسموح توجيه النقد إلى معوقات التطبيق الاشتراكي والممارسات التنفيذية وتشجيع الاجتهاد وتنوع الآراء في إطار الصبغة التي حددها الميثاق الوطني. وقد شهدت هذه المرحلة صدور قانون المؤسسات الصحفية في مارس ١٩٦٤. ورغم تأكيدات القيادة السياسية سواء في المواثيق الرسمية أو تصريحات عبد الناصر على ضمان حرية الصحافة وإنكار وجود رقابة على الصحف. إلا أن الواقع يؤكد أن الرقابة لم تلغ مطلقاً بل أصبحت رقابة ذاتية يقوم بها رؤساء التحرير وقد اعترف عبد الناصر بذلك في إحدى تصريحاته في أغسطس عام ١٩٦٦ كذلك لم يكن مسموحاً بممارسة النقد إلا في أضيق الحدود سواء بالنسبة للمواقع أو الأشخاص والموضوعات وكانت المسألة تتوقف على مدى الثقة التي يحظى بها هؤلاء الصحفيون الذين يجرؤون على ممارسة النقد لأحد المسؤولين أو لبعض الممارسات التنفيذية. ولم تكتف القيادة السياسية بمجموعة التشريعات والقوانين التنظيمية التي حددت للصحافة المصرية وللصحفيين حدود الممارسة المهنية بل سمحت لنفسها بالتدخل في تعيين رؤساء مجالس الإدارات ورؤساء التحرير بدلاً من ترك مهمة اختيارهم للصحفيين أنفسهم عن طريق الانتخاب الحر داخل المؤسسات الصحفية.

ولم تخل هذه المرحلة من بعض الممارسات اللاديموقراطية التي اقترفتها السلطة السياسية مع الصحافة والصحفيين وكان أبرزها نقل بعض الصحفيين من عملهم من المؤسسات الصحفية إلى مؤسسات القطاع العام خلال الفترة من ١٩٦٤-١٩٦٦ بحجة أن المؤسسات الصحفية تخضع لقوانين المؤسسات العامة وأن النقل منها للجهاز الإداري للدولة جائز. وقد كشفت القيادة السياسية بهذا الإجراء عن تقييمها الفعلي للصحافة واعتبارها جزءاً من قطاعات السلطة التنفيذية مثل قطاع الخدمات وبذلك أسقطت عنها كل ما يميزها كمهنة لها رسالتها الثقافية والاجتماعية. ومن أبرز أحداث هذه المرحلة وقوع هزيمة يونيو ١٩٦٧. وقد كانت لها أثارها المباشرة على الصحافة المصرية حيث فتحت الأبواب واسعة لطح العديد من التساؤلات الجوهرية حول أسباب الهزيمة إذ كشفت هزيمة يونيو النقاب عن حقيقة النظام السياسي بتناقضاته وصراعاته وصياغاته التوفيقية الهشة سواء في مؤسساته العسكرية المتمثلة في الجيش أو مؤسساته الحزبية المتمثلة في الاتحاد الاشتراكي وقد أجبرت هذه الظروف القيادة السياسية على رفع قبضتها المهيمنة على الصحافة خوفاً من انهيار الجبهة الداخلية مما سمح بخلق انفراجه مؤقتة تعالت أثنائها أصوات النقد وتناولت كافة جوانب الحياة السياسية والعسكرية في مصر وقد سمحت السلطة في هذه الفترة بهامش أكبر من حرية التعبير لامتصاص حالات السخط والغضب العارم التي اجتاحت الرأي العام المصري والتي تصاعدت بعد صدور الأحكام على المسؤولين عن الهزيمة واتخذت شكل مظاهرات شارك فيها الطلبة والعمال (فبراير ١٩٦٨).

وفي نهاية الحقبة الناصرية صدر قانون جديد لنقابة الصحفيين (سبتمبر ١٩٧٠) نص على حماية حقوق الصحفيين خلال ممارستهم لمهنتهم فلا يجوز القبض على عضو من أعضاء النقابة أو حبسه احتياطياً لما ينسب له بسبب ممارسة المهنة ولا يجوز استجوابه أو التحقيق معه إلا بحضور النقيب أو من ينوب عنه.

الحقبة الساداتية: (١٩٧١-١٩٨١)

بداية هذه الحقبة شهد المجتمع المصري توجهات سياسية واقتصادية واجتماعية وإعلامية تختلف جذرياً عن مثيلاتها في الحقبة الناصرية وقد تمثلت هذه التوجهات في مقاطعة الاتحاد السوفيتي والتوجه نحو التحالف الغربي والعدول عن الإجراءات الاشتراكية وإعلان سياسة الانفتاح الاقتصادي والصلح مع إسرائيل.

وقد بدأ السادات في طرح منهجه في الحكم بصورة تدريجية خصوصاً بعد أن تمكن من التخلص من خصومه السياسيين في مايو ١٩٧١ والجدير بالذكر إن الصحافة المصرية قد ساندت السادات خلال ما يسمى حركة التصحيح وخصصت صفحاتها لتأييد وجهة نظره والتأكيد بمراكز القوى والمظالم التي تعرض لها الشعب على أيديهم. وقد شهدت هذه الفترة صدور عدة قرارات تلخص علاقة السلطة السياسية بالصحافة في مصر وبرزت هذه القرارات قرار إلغاء الرقابة على الصحف الذي صدر في فبراير ١٩٧٤ وكان صدوره يمثل نهاية مرحلة من المناقشات في مجلس الشعب بدأت عام ١٩٧٢. ومن المعروف أن الرقابة كانت مفروضة على الصحافة منذ إعلان الأحكام العرفية مع وقوع العدوان الإسرائيلي في ٥ يونيو ١٩٦٧. ولكن لم يمض أقل من شهر على إلغاء الرقابة حتى بدأت السلطة السياسية تضيق بهذا الهامش المحدود من الحرية الذي منحتة للصحف إذ أبدى السادات تبرمه الشديد مما اسماءه سوء استغلال الصحافة للحرية وأعرب عن استيائه في عدة خطب وتصريحات وقد بدأت العلاقة بين الصحافة والسلطة السياسية تتأزم حتى بلغت مداها في مارس ١٩٧٦ عندما وجه السادات لومه الشديد للصحف ونبه إلى سوء استخدامها للحرية مشيراً إلى ما نشرته أخبار اليوم عن الرئيس الراحل

جمال عبد الناصر كما أكد إصراره على حرية الصحافة مهما تعددت الممارسات الخاطئة ولكنه أصدر في ذات الوقت قراراً بتعيين أعضاء مجالس إدارات الصحف وكان قد أصدر عام ١٩٧٥ قراراتين أخريين بإنشاء المجلس الأعلى للصحافة وإصدار ميثاق الشرف الصحفي لضمان عدم خروج الصحافة المصرية عن الالتزام السياسي والاقتصادي للسلطة. كما عززت السلطة السياسية هذه القرارات ببعض الإجراءات التي لم يصدر بشأنها قرارات رسمية ولكنها حققت نتائج تتفق مع المسار العام للنظام السياسي دون ضجيج إعلامي. ويتضح ذلك من تصفية الكوادر اليسارية في الصحف المصرية وأبرز مثال طرد الكادر الصحفي لمجلة الكاتب عام ١٩٧٤ وتحويل مجلة الطليعة اليسارية إلى مجلة للشباب وتوزيع كادرها التحريري على مختلف الأقسام في صحيفة الأهرام اليومية وذلك في مارس ١٩٧٧ وإقصاء رؤساء تحرير ومجالس إدارات بعض الصحف مثل المصور وروز اليوسف واستبدال آخرين بهم يلتزمون بالخط الفكري والايديولوجي للسلطة السياسية القائمة.

وتتميز هذه المرحلة بحدوث تغيرات أساسية في الخريطة الصحفية في مصر حيث أضيفت إلى الصحف الحكومية القائمة مجموعة جديدة من الصحف التي صدرت كلسان حال للأحزاب الجديدة بموجب القانون رقم ٤٠ لعام ١٩٧٧ الخاص بنظام الأحزاب السياسية وقد أجاز لكل حزب إصدار صحيفة أو أكثر للتعبير عن آرائه وأفكاره دون حاجة إلى الحصول على ترخيص فأصدر حزب الأحرار الاشتراكيين صحيفته الأسبوعية (الأحرار) في نوفمبر ١٩٧٧ ثم تلتها صحيفة الأهالي لسان حال حزب التجمع الوحدوي التقدمي في فبراير ١٩٧٨ فصحيفة مصر لسان حال حزب مصر العربي الاشتراكي وفي أغسطس ١٩٧٨ أعلن السادات تأسيس الحزب الوطني الديمقراطي برئاسته وقد انضم إليه حزب مصر انضماماً جماعياً وتوقفت صحيفة مصر في سبتمبر ١٩٨٧. هذا وقد عمدت

السلطة السياسية في السبعينيات إلى تعزيز سيطرتها على الصحافة بإصدار مجموعة من القوانين والتشريعات تزعم حماية الوحدة الوطنية والسلام الاجتماعي وتجريم نشر وإذاعة الأخبار في الخارج التي قد تلحق أضراراً بالمصالح القومية العليا. وقد صدرت هذه القوانين بداية من عام ١٩٧٢ حتى ١٩٨١ تحت أسماء مختلفة ونصت على مجموعة من العقوبات السياسية والأدبية والحرمان من القيام بأعمال لها تأثير في تكوين الرأي العام أو تربية النشء وقد كان قانون سلطة الصحافة رقم ٤٨ لعام ١٩٨٠ هو خاتمة هذه القوانين. وقد أسند إلى مجلس الشورى مسؤولية التعبير عما أسماه السيادة الشعبية في مجال الصحافة وممارسة حقوق الملكية بالنسبة للصحف القومية. وقد عززت السلطة السياسية الساداتية هذه التشريعات بمجموعة من الممارسات المعادية للصحف المعارضة خصوصاً ضد صحيفة الأهالي وما تعرضت له من مصادرات وملاحقات انتهت بتوقفها بعد عدة أشهر من صدورها ولم تستأنف الصدور إلا بعد انتهاء حكم السادات وكذلك موقف السلطة الساداتية من جريدة الشعب حيث قامت بسحب ترخيص الصحيفة نهائياً في سبتمبر ١٩٨١. وقد بلغت الأزمة بين حكم السادات وصحف المعارضة ذروتها في سبتمبر ١٩٨١. وكانت بمثابة جزء من الأزمة الشاملة لنظام السادات وصدامه مع كافة القوى الوطنية والديموقراطية والتي تمثلت في إعتقال عدد كبير من الصحفيين وفصلهم من أعمالهم ضمن سائر الفئات من المثقفين وأساتذة الجامعات. وانتهت هذه الأزمة باغتيال السادات في أكتوبر ١٩٨١ وانطواء الحلقة الثالثة من التاريخ السياسي لثورة يوليو.

حقبة مبارك ١٩٨١-٢٠٠٥

رغم إيماني بالرأى القائل أن المعاصرة حجاب وأن فهم أى مرحلة تاريخية لا يتحقق بصورة علمية صحيحة إلا بعد زوال المرحلة واختفاء رموزها الفاعلة وفتح ملفاتها ووثائقها الخفية إلا أن هذا لا يحول دون رصد بعض المؤشرات العامة عن علاقة السلطة السياسية الحاكمة بالصحافة خلال الحقبة الراهنة التى بدأت بمجئ مبارك إلى السلطة فى أكتوبر ١٩٨١. وتتمحور أهم سمات هذه المرحلة فى الحقائق التالية:

١ - استمرار علاقة التبعية العضوية بين الدولة والمؤسسات الصحفية القومية ولعل التأكيد القانونى على ديمومة هذه العلاقة منذ صدور قرر تأميم الصحافة فى مايو ١٩٦٠ قد صبغ هذه المؤسسات والصحف الصادرة عنها بالصبغة الحكومية أو شبه الرسمية وأوجد من لا يزال ينظر إلى الصحفيين فى هذه المؤسسات على أنهم أتباع السلطة الذين يجب عليهم مناصرتها ظالماً أو مظلوماً. فالمؤسسات الصحفية القومية لا تزال تسيطر على النصيب الأكبر من سوق الصحافة المطبوعة ولا تخفى هذه المؤسسات ولائها التام للحكومة وتحديدأ لرئيس الدولة وقيامها على التسبيح بحمده ليل نهار وتحويله إلى شخصية مقدسة لا يمكن أن يمتد إليها النقد.

وغالبأ ما يمتد هذا التقديس إلى من يحيطهم الرئيس برعايته وحمايته بل لبعض السياسات التى يتحمل مسئوليتها الأولى بل والمفاهيم والخطابات التى يؤسس عليها شرعيته فى الحكم. وحيث أن الرئيس هو التجسيد الحى للدولة

وللحكومة معاً وهو محور كل شئ تقريباً في عالم السياسة وفقاً للدستور فإن دور الصحافة القومية أصبح تبريراً ينهض على الحجب والإخفاء والتمويه والتبرير وليس على كشف الحقائق وتقصى المسؤوليات ونقد السياسات والأوضاع الفعلية.

وقد ضاعف من الطابع التسلطي للصحف القومية أن الدولة درجت على اختيار وتعيين القيادات في هذه المؤسسات الصحفية بصورة تغلب عليها المعايير السياسية والأمنية والولاء للسلطة الحاكمة وإغفال اعتبارات الكفاءة والخبرة المهنية والمهارات القيادية فيمن يتولى منصب رئيس مجلس إدارة المؤسسة الصحفية القومية أو رئيس التحرير. وقد أفرز هذا التوجه مشكلة إدارية مركبة تمثلت في صعود أنصاف الموهوبين صحفياً وإدارياً وحرمان هذه المؤسسات من الكفاءات الصحفية القادرة على تجديد المهنة والنهوض بها والحفاظ على تراثها الثقافي والأخلاقي فضلاً عن تراجع فرص الأجيال الجديدة بسبب بقاء هذه القيادات في مواقعها فترات تقرب من ربع قرن مما يعد ظاهرة غير مسبوقة في تاريخ الصحافة المصرية.

٢- ساد التوجه نحو تبني صيغة الجمع بين منصبي رئيس مجلس إدارة المؤسسة الصحفية ورئيس التحرير مما يتنافى مع أبسط قواعد الإدارة الحديثة من ناحية والتوجه العالمى نحو الفصل بين الإدارة والتحرير في المؤسسات الصحفية الكبرى من ناحية أخرى. وقد أسفر هذا الوضع عن سلبيات عديدة أصابت بيئة العمل الصحفى في مقتل خصوصاً في ظل غياب الآليات الفعلية الكفيلة بمحاسبة وعزل القيادات الإدارية للمؤسسات الصحفية القومية التي ثبت فشلها وعدم صلاحيتها إدارياً. وخلافاً للمبدأ الإدارى المعروف عن تلازم المسؤولية مع السلطة لم تسجل الفترة الزمنية التي تتحدث في إطارها عن حالة واحدة تم فيها عزل أو إزاحة رئيس تحرير أو رئيس مجلس إدارة إحدى

المؤسسات الصحفية القومية بالرغم من خسائرها الفادحة التي لا تخفى على أحد.

ومن ابرز السبلات التي ترتبت على الجمع بين منصبى رئيس التحرير ورئيس مجلس الإدارة فى المؤسسات الصحفية القومية غياب الممارسة الديمقراطية داخل هذه المؤسسات خاصة ما يتعلق بمشاركة المحررين فى صنع القرارات التحريرية المؤثرة فى تحديد السياسة التحريرية للصحف الصادرة عن هذه المؤسسات. ويتناقض ذلك مع ما أقرته وأكدته القوانين المنظمة للعمل الصحفى ١٤٨ لعام ١٩٨٠، ٩٦ لعام ١٩٩٦. ولأول مرة فى تاريخ الصحافة المصرية من تحديد اختصاصات مجلس التحرير كهيئة يتحتم وجودها فى المؤسسة الصحفية القومية ومنوط به رسم السياسة التحريرية للصحيفة عوضاً عن أن ينفرد بها رئيس التحرير وحده كما أن تشكيل مجالس التحرير كان يتم بالتعيين وليس بالانتخاب وقد أثبتت التجربة خلال العقدين الماضيين عدم فاعلية بل وقصور هذه التشكيلات عن ممارسة صلاحياتها واختصاصاتها سواء فى رسم السياسة التحريرية أو إدارة المؤسسات الصحفية القومية.

٣- لقد أتاحَت السلطات التقديرية الواسعة الممنوحة للقيادات الصحفية فى المؤسسات القومية سواء على المستوى الإدارى أو التحريرى فرصة إهدار المعايير الموضوعية فى الترقيات والعلاوات والجزاءات وتوزيع المسئوليات المهنية علاوة على انتهاج أساليب إجرامية لترويض الصحفيين وإجبارهم على الخضوع المطلق لإملاءات هذه القيادات وخدمة مصالحها الشخصية. وقد أسهمت هذه الآليات فى نشر ثقافة الخوف وشيوع الثقافة والشللية مما انعكس بالسلب على الأداء المهني وعلاقات الزمالة بين الصحفيين داخل هذه المؤسسات.

٤- لقد أدى احتكار السلطة الإدارية والتحريرية لصالح القيادات المعينة في المؤسسات الصحفية القومية إلى اختلال الهياكل التمويلية والاقتصادية للعديد من هذه المؤسسات ويؤكد هذا الخلل في الأداء والمتابعة والرقابة ما فجرته قضية إشهار إفلاس مؤسسة التعاون كأول سابقة في تاريخ المؤسسات الصحفية التي أصبحت قومية منذ عام ١٩٦٠ وحتى الآن.

٥- ابتدعت الصحافة القومية ومؤسساتها وإدارتها منذ نهاية الثمانينيات في القرن الماضي صيغة غير مسبوقة في تاريخ الصحافة المصرية تمثلت في إصدار الصفحات الإعلانية المتخصصة ذات الدورية المنتظمة أو شبه المنتظمة والتي توظف كل أشكال الإعلان خاصة التحريرى وهو الأخطر لتوصيل رسالتها إلى القراء دون الإشارة إلى أنها صفحات إعلانية أو تسجيلية مدفوعة الأجر وقد ترتب على ذلك إهدار منظومة القيم الأخلاقية والمهنية التي ينص عليها ميثاق الشرف الصحفي. إذ شجعت هذه المؤسسات الصحفيين على الانحراف في مجال الإعلانات مما فتح الباب أمام (لوبي) جديد للمعلنين خاصة أصحاب التعاقدات الثابتة أو الدائمة لاستثمار هذا التوجه لصالحهم ولإفساد الصحافة والصحفيين مما يمثل انتهاكاً صارخاً لقانون تنظيم الصحافة رقم ٩٦ لعام ١٩٩٦ الذى ينص على عدم جواز الجمع بين العمل الصحفى ومهمة جلب الإعلانات.

٦- تميزت الحقبة الراهنة عام ٢٠٠٥ باستمرار الصراع الخفى بين الهيئات التى تمثل أجهزة وسيطة بين السلطة والصحافة مثل هيئة الاستعلامات التى تتولى مسئولية الإشراف على تنفيذ قانون المطبوعات ومنح بطاقات لبعض العاملين بالمكاتب الخارجية للصحف غير المصرية باعتبارهم صحفيين والمجلس الأعلى للصحافة الذى يمثل قيداً حكومياً يزاحم النقابة فى صميم اختصاصاتها. هذا

ولم تتوقف المحاولات المستمرة التي تقوم بها السلطة التنفيذية للسيطرة على النقابة وأبرزها التدخل في جدول القيد مما أسفر عن تسلل أعداد كبيرة من الدخلاء إلى عضوية نقابة الصحفيين فضلاً عن محاولات التدخل في انتخابات النقابة بفرض مرشحيها ودعمهم بالإمكانات المادية والدعائية.

٧- لعل أبرز انتهاك حدث لحرية الصحافة خلال حقبة مبارك يتمثل في قانون اغتيال حرية الصحافة رقم ٩٣ لعام ١٩٩٥ والذي صدر بصورة مفاجئة في ٢٧ مايو ١٩٩٥ وأشعل معركة حامية استمرت عاماً كاملاً خاضها الصحفيون تحت لواء نقابتهم بإجماع شمل جميع الأجيال الصحفية وتمكنوا بمساندة القوى الديمقراطية والمثقفين وأساتذة الجامعات من إسقاط هذا القانون واستصدار القانون رقم ٩٦ لعام ١٩٩٦ الذي يمثل خطوة متقدمة نسبياً عن القانون السابق ولكنه حافظ على جوهر النصوص السالبة للحريات خصوصاً ما يتعلق بحبس الصحفيين وتقييد حق إصدار الصحف للأفراد والتحكم في مصادر المعلومات.

ورغم إعلان نقيب الصحفيين في المؤتمر الرابع للصحفيين عن قرار الرئيس مبارك بإلغاء عقوبات الحبس في قضايا النشر بالنسبة للصحفيين ولغير الصحفيين إلا أن الإجراءات الخاصة بالتعديلات القانونية كى يصبح قرار الرئيس نافذاً لم تستكمل مما يعكس استمرار هيمنة العناصر المعادية لحرية الصحافة على السلطة التشريعية التي تم احتوائها واستيعابها لصالح السلطة التنفيذية.

(٣)

حرية الصحافة في الدساتير المصرية (رؤية تاريخية معاصرة)

حرية الصحافة في المواثيق الدولية والدساتير المصرية:

مع بروز تيار دولي مناصر للحريات وحقوق الإنسان جاء الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الصادر في ١٠ ديسمبر ١٩٤٨ ليوفر حماية قانونية دولية للحريات وحقوق الإنسان وفي صدارتها حرية الرأي والتعبير فقد أكدت المادة ١٩ من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان على حق كل شخص في حرية الرأي والتعبير وإصدار الصحف وحرية استقاء الأنباء والأفكار وإذاعتها بكافة الوسائل. كما أكدت العديد من المواثيق الدولية والإقليمية على نفس الحقوق مثل (المادة ١٩ من الاتفاقية الدولية للحقوق المدنية والسياسية (١٩٦٦)، الوثيقة الدولية للحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والاتفاقية الأوروبية لحقوق الإنسان والميثاق الإفريقي لحقوق الإنسان وإعلان اليونسكو للإعلام (١٩٧٨) والمبادئ الخاصة بالنظام العالمي الجديد للإعلام والاتصال (١٩٨٨). ويتفاوت الالتزام بالقانون الدولي لحقوق الإنسان لدى الدول المختلفة وحيث أن النظام القانوني في مصر يسير على هدى نظرية أحادية القانون ولذلك تم إدراج النصوص المتعلقة بحرية التعبير وحقوق الإنسان خصوصاً نص المادة ١٩ من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان ضمن القانون الوطني.

والواقع أن هذه المواثيق الدولية لم تعد وحدها كافية لضمان تحقيق حرية الاتصال في ظل النظام الإعلام العالمى الراهن الذى يتسم بالخلل وأوجه التفاوت الخطيرة سواء على المستويات الدولية أو القومية والتي تتمثل في الانسياب غير المتوازن للمعلومات والذى يتدفق من المراكز إلى الأطراف ومن الحكومات إلى الأفراد ومن الثقافة المسيطرة إلى الثقافات التابعة ومن الدول الغنية إلى الدول الفقيرة في الجنوب. هذا ورغم حرص جميع النظم الديمقراطية والشمولية على تأكيد ضمانات دستورية لحرية الصحافة إلا أن هذه الضمانات غالباً ما تناقضت مع النصوص القانونية والممارسات الإعلامية لحرية الرأى والتعبير مما يؤكد أن الدساتير لا تصنع الحريات وإنما الحرية هي التى تصنع الدساتير.

ولقد أجمعت الدساتير العربية على أن حرية الصحافة مكفولة في حدود القانون. وتضمنت الدساتير المصرية المتتابعة القواعد المنظمة لحرية الصحافة، حيث نصت المادة (١٥) من دستور (١٩٢٣) على أن الصحافة حرة في حدود القانون، والرقابة محظورة، وإنذار الصحف أو وقفها أو إلغائها بالطريق الإدارى محظور كذلك، إلا إذا كان ذلك ضرورياً لوقاية النظام الاجتماعى.

وتكررت نفس المادة في المادة (١٥٣) من دستور (١٩٣٠). ونص الإعلان الدستورى (١٩٥٣) والمادة (٤٥) من دستور (١٩٥٦) ودستور (١٩٥٨) على أن حرية الصحافة والطباعة والنشر مكفولة وفقاً لمصالح الشعب. وجاء دستور ١٩٦٤ في المادة (٣٦) ليستبدل عبارة مكفولة "وفقاً لمصالح الشعب" بعبارة "مكفولة في حدود القانون".

وفي دستور (١٩٧١) نصت المادة (٤٧) على أن "حرية الرأى مكفولة. ولكل إنسان التعبير عن رأيه ونشره بالقول والكتابة أو التصوير أو غير ذلك من وسائل التعبير في حدود القانون والنقد الذاتى والنقد البناء ضماناً لسلامة البناء الوطنى".

ونصت المادة (٤٨) على أن "حرية الصحافة والطباعة والنشر ووسائل الإعلام مكفولة، والرقابة على الصحف محظورة. وإنذارها أو وقفها أو إلغاؤها بالطريق الإداري محظور، ويجوز استثناء في حالة إعلان الطوارئ أو زمن الحرب أن يفرض على الصحف والمطبوعات ووسائل الإعلام رقابة محدودة في الأمور التي تتصل بالسلامة العامة أو أغراض الأمن القومي. وذلك كله وفقاً للقانون".

وتضمن التعديل الدستوري (١٩٨٠) ست مواد منها ثلاث تدور حول حرية الصحافة. هي المواد (٢٠٦-٢٠٧-٢٠٨) وثلاث مواد أخرى (٢٠٩-٢١٠-٢١١) تتناول حرية إصدار الصحف وحرية الصحفيين واختصاصات المجلس الأعلى للصحافة.

وطبقاً لهذا التعديل الدستوري - الذي تواكب مع التحول إلى التعددية الحزبية، بإلغاء الاتحاد الإشتراكي، واستحداث مجلس الشورى لينوب عن التنظيم السياسي الواحد في تنظيم شئون الصحافة - أصبحت الصحافة سلطة مستقلة تمارس رسالتها على الوجه المبين في الدستور والقانون (المادة ٢٠٦).

وتنص المادة (٢٠٧) على أن "الصحافة تمارس رسالتها بحرية واستقلال وفي خدمة المجتمع بمختلف وسائل التعبير، تعبيراً عن اتجاهات الرأي العام، وإسهاماً في تكوينه وتوجيهه". وتنص المادة (٢٠٨) أن "حرية الصحافة مكفولة، والرقابة على الصحف محظورة، وإنذارها أو وقفها أو إلغاؤها بالطريق الإداري محظور، وذلك كله وفقاً للدستور والقانون". وتنص المادة (٢٠٩) عن أن "حرية إصدار الصحف وملكيته للأشخاص الاعتبارية العامة والخاصة للأحزاب السياسية مكفولة طبقاً للقانون. وتخضع الصحف في ملكيتها وتمويلها والأموال المملوكة لها لرقابة الشعب على الوجه المبين بالدستور والقانون".

وبينما تؤكد المادة (٢١٠) "حق الصحفيين في الحصول على الأنباء والمعلومات، تحدد المادة (٢١١) اختصاصات المجلس الأعلى للصحافة في دعم حرية الصحافة واستقلالها، والحفاظ على المقومات الأساسية للمجتمع، وضمان سلامة الوحدة الوطنية والسلام الاجتماعي".

هذا وقد حرصت الدساتير التي أعقبت الإعلان العالمي لحقوق الإنسان والاتفاقية الدولية للحقوق المدنية والسياسية على تأكيد التزام نصوصها بالمواثيق الدولية المنظمة للحريات وفي مقدمتها حرية الصحافة.

ومما يجدر ملاحظته توسع المشرع الدستوري في فرض الضوابط على حرية الصحافة، وبوجه خاص في الدساتير التي صدرت بعد قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، الأمر الذي يمثل تراجعاً عن الحرية التي شهدتها الصحافة المصرية خلال الحقبة الليبرالية (١٩٢٤-١٩٥٢).

فإذا كان دستور (١٩٢٣) قد قيد حرية الصحافة "وقاية للنظام الاجتماعي" فإن الدساتير التي أعقبته استحدثت قيوداً جديدة تحت مسميات مختلفة مثل: مصالح الشعب، وسلامة البناء الوطني، والنقد البناء، والطوارئ والسلامة العامة، والأمن القومي، وسلامة الوحدة الوطنية، والسلام الاجتماعي. وبينما خلت دساتير ما قبل ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ من التنظيمات والمجالس المنظمة لشئون الصحافة، استحدثت دساتير ما بعد الثورة تنظيمات تعكس رغبة السلطة السياسية في فرض هيمنتها على الصحافة مثل الإتحاد القومي، والإتحاد الاشتراكي، ومجلس الشورى، والمجلس الأعلى للصحافة.

(أ) وإذا استعرضنا تاريخ حرية الصحافة في مصر، نجد جزء من تاريخ الحركة الوطنية المصرية.

(ب) فإذا كان قانون المطبوعات لعام ١٨٨١ قد قضى على صحافة الثورة العربية فإن قانون ١٩٠٩ قضى على صحافة الحزب الوطني بزعامة محمد فريد.

(ج) وقد شهدت مصر أول مظاهرة شعبية ضمت عشرة آلاف متظاهر، يوم الجمعة ٢٦ مارس ١٩٠٩، للاحتجاج على إعادة قانون المطبوعات. وتجددت المظاهرات يوم الأربعاء ٣١ مارس ثم الخميس أول أبريل ١٩٠٩ احتجاجاً على تفاوض حكومة بطرس غالى مع "تيودور هرتزل" حول تهجير اليهود إلى سيناء ومد مياه النيل إليها.

(د) ولم يتوقف الصراع من أجل حرية الصحافة، على مدى ما يزيد من قرن، حيث تجددت الأزمات مع تزايد إحساس أنظمة الحكم المختلفة بالخطر من ممارسة الصحافة المصرية لدورها الوطني بحرية، ومن ثم توالى التشريعات المقيدة للحرية والمغلظة للعقوبات في عهد حكومات أحمد زيور (١٩٢٥) ومحمد محمود (١٩٢٨) وإسماعيل صدقي (١٩٣٠). وعندما تقدم أحد النواب عام (١٩٥١) بمشروع قانون استهدف تقييد نشر أخبار القصر الملكي، نشطت الأقاليم الوطنية والأصوات الحرة داخل البرلمان لإسقاط هذا المشروع.

وفي عهد حكومات ثورة يوليو تجددت الأزمات بإلغاء الأحزاب وتوقف صحفها عام ١٩٥٣، وفرض الرقابة على الصحف، وتولى ضباط الجيش مسئولية المؤسسات الصحفية، ثم تأميم الصحف من خلال قانون تنظيم الصحافة رقم ١٥٦ لسنة ١٩٦٠ ونقل الصحفيين إلى مؤسسات لا علاقة بها بالعمل الصحفى خلال السنوات ١٩٦٤، ١٩٦٦، ١٩٧٣، ١٩٨١.

ورغم أن السادات قد بادر بإلغاء الرقابة على الصحف، فى إطار التحول إلى التعدد الحزبى، وعودة الصحافة الحزبية بعد توقف دام قرابة الربع قرن، فإنه لم

يحتمل حرية الصحافة طويلاً، فواجهها بسلسلة من القوانين الاستثنائية المقيدة للحريات، حتى بلغت الأزمة ذروتها بإجراءات سبتمبر ١٩٨١.

وقد شهدت الثمانينيات والتسعينيات، هامشاً أوسع من حرية الصحافة، تخللته فترات توتر وصدام، ورغبة في تحجيم هذه الحرية، عبر عنها القانون ٩٣ لسنة ١٩٩٥، والذي أثار أزمة سياسية ودستورية امتدت لعام كامل، شهدت أروع ملحمة في النضال من أجل حرية الصحافة، التأمت فيها وحدة الصحفيين بمختلف أجيالهم وتياراتهم واتجاهاتهم لتنتهي الأزمة بسقوط القانون ٩٣ لسنة ١٩٩٥، وانتصار حرية الصحافة.

إن المتتبع لتاريخ التشريعات الصحفية في مصر، يلاحظ جنوح المشرع المصرى إلى الأخذ بالمنهج الجنائي في التعامل مع جرائم الصحافة والنشر، حيث توالى القوانين وتعديلاتها، في مختلف العهود، بفلسفة عقابية، تبقى على رصيد القوانين القديمة، وتضيف إليها بتغليظ العقوبات، واستحداث جرائم جديدة بعبارات غامضة ومطاطة، تستهدف في الأساس إرهاب الصحفيين وردعهم، والحيلولة دون قيام الصحافة بواجبها في التصدي للفساد والاستبداد.

لقد توارثت الصحافة المصرية رصيذاً ضخماً من القوانين، بلغ ما يقرب من ١٨٤ قانوناً وتعديلاً، صدر معظمها في ظروف استثنائية، لمواجهة صحف بعينها وصحفيين وكتاب بعينهم.

وإذا استبعدنا القوانين الملغاة، يتبين أن الإطار القانوني الراهن للصحافة المصرية يتضمن ٢٢ قانوناً هي:-

- القانون ٩٦ لسنة ١٩٩٦ بشأن تنظيم الصحافة.

- القانون ٢٠ لسنة ١٩٣٦ بشأن المطبوعات.

- قانون العقوبات ٥٨ لسنة ١٩٣٧.
- القانون ١٥٠ لسنة ١٩٥٠ بشأن الإجراءات الجنائية.
- القانون ٧٦ لسنة ١٩٧٠ بشأن نقابة الصحفيين.
- القانون ٣٥٤ لسنة ١٩٥٤ بشأن حماية حق المؤلف.
- القانون ٣١٣ لسنة ١٩٥٦ بشأن حظر أنباء الجيش.
- القانون ١٢١ لسنة ١٩٧٥ بشأن نشر الوثائق الرسمية.
- القانون ٢٩١٥ لسنة ١٩٦٤ بشأن الجهاز المركزي للتعبئة والإحصاء.
- القانون ١٠٠ لسنة ١٩٧١ بشأن المخابرات العامة.
- القانون ٤٧ لسنة ١٩٧٨ بشأن العاملين المدنيين بالدولة.
- القانون ٤٠ لسنة ١٩٧٧ بشأن نظام الأحزاب السياسية.
- القانون ٢٥ لسنة ١٩٦٦ بشأن الأحكام العسكرية.
- القانون ١٥٩ لسنة ١٩٨١ بشأن الشركات المساهمة.
- القانون ٣١٧ لسنة ١٩٥٦ بشأن الجمعيات التعاونية.
- القانون ٥٠ لسنة ١٩٧٢ بشأن حالة الطوارئ.
- القانون ٣٤ لسنة ١٩٧١ بشأن حماية الوحدة الوطنية.
- القانون ٣٧ لسنة ١٩٧٢ بشأن حرية الوطن والمواطنين.
- القانون ١٠٥ لسنة ١٩٨٠ بشأن محاكم أمن الدولة.
- القانون المدني.
- القانون ٦٢ لسنة ١٩٧٥ بشأن الكسب غير المشروع.
- القانون ١٣٧ لسنة ١٩٨١ بشأن إصدار قانون العمل.

وفي ضوء هذه القوانين، تتعدد الجهات التي تتعامل مع الصحافة، سواء بمنح التراخيص والموافقات، أو بتنظيم تدفق المعلومات وحظرها، أو بالتأديب والمساءلة الجنائية والسياسية. ومن بين هذه الجهات مجلس الشورى، والمجلس الأعلى للصحافة، ونقابة الصحفيين، ووزارات الإعلام والداخلية والعدل، والمخابرات العسكرية، والقضاء العادي، ومحاكم أمن الدولة والمحاكم العسكرية، وجهاز المدعى الاشتراكي، وجهاز الكسب غير المشروع، ومصلحة الشركات، والإتحاد العام للتعاونيات.

وفي إطار تكامل حلقات التشريع وتداخلها تبرز عدة حقائق أولها: سيادة المنهج الجنائي والفلسفة العقابية في كافة العهود الخديوية والملكية والجمهورية. وثانيهما التطور المعاكس لحركة التاريخ والتطور الديمقراطي، حيث تدرجت معظم التشريعات من المنح إلى المنع، ومن المرونة إلى التخليط. وثالثها حرص المشرع المصري على الإبقاء على التراكم التشريعي المقيد والمعوق لحرية الصحافة، دون مراعاة لطبيعة المتغيرات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية التي شهدتها مصر على امتداد القرنين التاسع عشر والعشرين.

ما العمل: البدائل المطروحة:

في إطار التحديات التي يطرحها الواقع الراهن للإعلام والصحافة العربية التي تحمل فوق أكتافها تراثاً تاريخياً مرموقاً على المستويين الوطني والديمقراطي وتزخر في ذات الوقت بكم هائل من التناقضات الناتجة عن صراع المصالح وتزامن القديم والجديد والوافد والموروث دون تفاعل حقيقى حيث تهيمن أيديولوجية السوق برموزها الاستهلاكية على مجمل الواقع المجتمعي وفي قلبه الصحافة والإعلام كل ذلك يفرض ضرورة تبنى استراتيجية فاعلة وقادرة على تجاوز

الصراعات والاختراقات والانتهاكات وسائر المخاطر التي تهدد الإعلام العربي مقروءاً ومسموعاً ومرئياً سواء في صميم وظائفه المهنية أو أدواره المجتمعية.

وينطلق التصور الاستراتيجي البديل من النمط الاستهدافي المستقبلي سعياً لتغيير الوضع الراهن للأسس التشريعية والمهنية المنظمة لمهنة الصحافة والإعلام العربي حيث تتزامن مستحدثات التكنولوجيا الاتصالية والمعلوماتية مع تركة الموروثات المهنية والإدارية والتشريعية التي يعاني منها الإعلام العربي والتي تتجلى في كثير من الأزمات بسبب ترسانة القيود الأمنية وتحالفها مع أباطرة السوق مضافاً إليها الاختراقات النفطية والصهيوأمريكية. الأمر الذي لا يهدد فحسب الإعلام العربي بل ينذر بتهميش المجتمعات العربية وشل فاعليتها وقدرتها على المشاركة في صنع مستقبلها.

هذا وتتضمن منظومة البدائل المستهدفة كل من الجوانب التشريعية والقانونية التي تتحكم في الصحافة والإعلام العربي كما تشمل الأوضاع المهنية التي تضم بيئة العمل الإعلامي والسياسات الإعلامية ودور النقابات والاتحادات الصحفية.

أولاً: البدائل التشريعية:

سعيًا لإزالة التناقض بين منظومة التشريعات والقوانين التي تتحكم في الإعلام والصحافة العربية التي تركز على قيمة السلطة وبين تجليات الثورة التكنولوجية في مجالي الاتصال والمعلومات التي تدعم قيمة الحرية يمكن بلورة منظومة من البدائل التشريعية والإعلامية التي اقترحها فقهاء التشريع والقانون المستنيرين ونخبة من علماء وأساتذة الإعلام وذلك على النحو التالي:

أولاً: حرية إصدار الصحف والبث الإعلامي. وتعتبر هي المقدمة الأولى التي تستند عليها كافة الحريات الأخرى المرتبطة بحرية الرأي والتعبير في المجال

الإعلامى إذ رغم مشروعية المخاوف التى تجعل المشرع العربى متردداً إزاء إطلاق حرية تملك وإصدار الصحف استناداً إلى الخوف من سيطرة رأس المال الأجنبى ومصالح المتحكمين فى السوق العالمية إلا أن ثورة الاتصالات والتدفق اللامحدود للمعلومات عبر قارات العالم قد أفقد المنظومة التشريعية المقيدة للحريات مبررات وجودها وإزاء تلك الحقيقة الساطعة لا بديل أمام الحكومات العربية إلا أن تسعى بجدية إلى تصفية ترسانة القيود التشريعية وتنقية القوانين المنظمة للعمل الإعلامى والصحفى من النصوص السالبة للحريات وذلك فى إطار الاستجابة للتحديات التى تواجه الإعلام والصحافة العربية فى ظل التحولات الدولية المعاصرة.

ثانياً: تفعيل التشريعات التى تنص على حق الصحفى فى الحصول على المعلومات خصوصاً وإن هذه التشريعات تفتقر إلى تحديد الآليات الضرورية لتفعيل هذا الحق فضلاً عن عدم تحديدها لنطاق ومفهوم سرية المعلومات التى لا يجوز نشرها فى الصحافة أو بثها فى الإعلام العربى الأمر الذى أدى إلى توسع السلطة التنفيذية فى فرض السرية على قطاع هائل من المعلومات تحت مسميات مطاطة تتعلق بالحفاظ على الأمن القومى والأمن العسكرى وهى فى الحقيقة تستهدف تأمين مصالح النظم الحاكمة علاوة على أن هذه المحظورات لم تعد صالحة للتطبيق فى ظل التقدم التكنولوجى الهائل فى وسائل الرصد والمراقبة وآليات الاختراق المعاصرة.

ثالثاً: إذا كان من غير المقبول دستورياً وأخلاقياً عدم التصدى للانحرافات المهنية التى تصدر من بعض الإعلاميين والصحفيين خصوصاً فيما يتعلق بجرائم السب والقذف والمقترنة بسوء القصد. إلا أنه من غير المقبول أيضاً المبالغة فى تجريم الممارسات الإعلامية التى تسعى لتفعيل حرية الراى والتعبير والتى تشكل جوهر مهنة الصحافة والإعلام باعتبارها مهنة رأى. وهنا تبرز الإشكالية الخاصة بقضايا جرائم السب والقذف سواء عن طريق النشر فى الصحف أو البث فى الإعلام

الرئى والمسموع حيث يستلزم الأمر ضرورة تعديل مواقف المشرع العربى من جرائم النشر وذلك بالسعى الجاد من أجل إلغاء عقوبة الحبس للصحفيين والاكتفاء بعقوبة الغرامة مع التعويض المدنى وإلقاء عبء إثبات سوء نية الصحفي على سلطة الاتهام.

ومن هنا يأتى التشديد على ضرورة مواصلة الجهود من أجل إلغاء النصوص القانونية السالبة للحريات وضمان حماية الحقوق المهنية للصحفيين ليس لأهمية ذلك فى حد ذاته ولكن لارتباط ذلك فى الأساس بجوهر العملية الديمقراطية وكفالة تحقيقها فى ضوء ما أقرته المواثيق العالمية بشأن ضمان حماية حقوق الإنسان وحرياته الأساسية.

البدائل الإعلامية:

وفى إطار التعددية الإعلامية الراهنة التى يشهدها العالم العربى برزت العديد من الإشكاليات المهنية التى كانت سائدة وازدادت وطأتها فى ظل التطورات التكنولوجية والضغط الأجنبى من أجل الإصلاح الديمقراطى واستمرار قبضة الحكومات تشريعياً وأمنياً ومعلوماتياً مع ظهور مخاطر جديدة هددت حرية الرأى والتعبير فى وسائل الإعلام تمثلت فى النفوذ المتصاعد لرجال الأعمال والمستثمرين واختراقاتهم المتواصلة للإعلام العربى من خلال الإعلانات وإنشاء قنوات فضائية خاصة علاوة على محاولات شراء سكوت العديد من الإعلاميين.

هذا ولا شك أن استنهاض الإرادة الجماعية للإعلاميين والصحفيين العرب من أجل تطوير الإعلام العربى حتى يصبح قادراً على مواكبة التطورات العالمية من خلال الكفاءة المهنية والالتزام الأخلاقى والوعى بثقافة حقوق الإنسان. كل ذلك يستلزم طرح بعض البدائل على النحو التالى:

أولاً: السعى الجاد لتحديث بيئة العمل الإعلامي في العالم العربي والتي تشمل تطوير البنية البشرية للإعلاميين والصحفيين العرب تأهيلاً وتدريباً وتسلحهم بالوعي بالقوانين المنظمة للعمل الإعلامي وتشجيعهم على ممارسة النقد البناء الملتزم للسياسات والممارسات السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية فضلاً عن ضرورة السعى الدؤوب لدمقرطة العلاقات المهنية مع رؤسائهم وزملائهم وتدريبهم على مقاومة الإغراءات والضغط من جانب المصادر وذلك بتأمين حقوقهم الاقتصادية والمهنية ويتصدرها حقهم الأصيل في حرية الرأي والتعبير.

ثانياً: تحديث البنية التكنولوجية للمؤسسات الإعلامية إذ أدت التغيرات الهيكلية الناتجة عن استخدام التكنولوجيا الحديثة على ظهور أنماط جديدة للعمل الصحفي والإعلامي الذي يقوم على الجهد الجماعي. كذلك سيؤدي استخدام التكنولوجيا الرقمية إلى تغيير الشروط المهنية الواجب توافرها في الأجيال الجديدة من الإعلاميين حيث ستصبح اليد العليا للقيم والمعايير المؤسسية التي لا تكتفي بالكفاءة المهنية بل تتطلب أيضاً القدرة على المواجهة التنافسية في السوق الإعلامية المعاصرة.

ثالثاً: تنشيط دور النقابات والاتحادات الصحفية في العالم العربي والسعى لتحريرها من النفوذ الحكومي والاختراق المالي من جانب رجال الأعمال والمستثمرين وحث الصحفيين على مواصلة الجهد من أجل تفعيل ميثاق الشرف الصحفي التي تستهدف حماية حقوق الصحفيين وضمانات ممارسة المهنة والحفاظ على كرامتها وتراثها العريق في الدفاع عن حرية الرأي والتعبير والكشف عن الفساد ومساوئ الإدارة والظلم الاجتماعي والسعى لإعداد خطة قومية متعددة المستويات لتثقيف وتدريب الصحفيين تحت إشراف اتحاد الصحفيين العرب والنقابات الوطنية.

(٤)

الإعلاميون العرب والجمهور فى ظل التعددية

رغم أن الخريطة المهنية للإعلاميين العرب تضم بضعة آلاف يعملون فى مختلف قطاعات الاتصال والإعلام المقروء والمرئى والمسموع غير أن الصحفيين العرب يشغلون عن جداره موقع الصدارة بحكم انتمائهم إلى أقدم المهن الإعلامية فى الوطن العربى وأعنى بها الصحافة العربية التى ترجع نشأتها الرسمية على أيدي العثمانيين فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر وإن كان يؤرخ لبدائتها الفعلية بنشأة الوقائع المصرية عام ١٨٢٨ . ويكشف التاريخ المهنى الطويل للصحفيين العرب أن أغلبهم لا يتمتعون بالحرية ولا يمارسون حقوقهم الاتصالية على الرغم من المبادئ الطنانة التى تزخر بها القوانين والدساتير العربية حيث يلاحظ تعدد وتنوع أشكال القيود المستترة أحيانا والتى تسفر عن وجهها قى أغلب الأحيان عندما تتخذ صورة العنف المباشر الذى يصل إلى حد السجن والاغتيال فضلا عن المطاردة فى الرزق والتشريد من الأوطان ويواجه الصحفيون العرب العديد من المخاطر النفسية والاقتصادية أثناء ممارسة المهنة تتمثل فى حدها الأدنى فى أشكال الرقابة السافرة والمقنعة التى تمارسها الحكومات العربية وتتراوح ما بين المنع من الكتابة والفصل من العمل بصورة متعسفة والنقل إلى وظائف أخرى والمنع من السفر وصولاً إلى الاعتقال والمحاكمات العسكرية وذلك رغم تصاعد نبرة الخطاب السياسى العربى فى تأكيد حريات التعبير والرأى وكفالة ممارستها. غير أن الواقع يؤكد عكس ذلك إذ شهدت فى السنوات الأخيرة العديد من الدول العربية سلسلة

من الممارسات المنافية لحرية الرأى والتعبير والنشر والإبداع والحق فى تداول المعلومات وأشارت إليها بالتفصيل تقارير منظمات حقوق الإنسان ومنظمة العفو الدولية وجميعها تؤكد تزايد أعداد الصحفيين الذين يتعرضون للاعتداءات الأمنية والمطاردات والسجون لفترات تتراوح ما بين ٤٨ ساعة وثمانية أشهر عدا تعرض العديد من الصحفيين للضرب والتعذيب.

ونظراً للقيود القانونية والمهنية التى تحاصر الصحفيون العرب وسقوط العديد منهم فى قبضة المعلنين وعدم صمودهم أمام إغراءات رجال الأعمال والمستثمرين ووكلاء الشركات المتعدية الجنسية علاوة على صعود الإعلام الفضائى والالكترونى وازدياد حاجة هذه الوسائل الاتصالية المستحدثة إلى كوادر بشرية مؤهلة ومدرّبة لتغطية المجالات الإخبارية وإعداد البرامج وإنتاج المواد الدرامية أدت هذه العوامل مجتمعة إلى اشتغال العديد من الصحفيين العرب فى الفضائيات وبرامج الإعلام الالكترونى. وشهدت الساحة العربية صعود نجم العديد من هؤلاء الصحفيين فى الإعلام الفضائى العربى والأجنبى خصوصاً فى البرامج الحوارية والرياضية والمنوعات.

ورغم تزايد أعداد الكوادر الإعلامية المرئية والالكترونية إلا أنه لوحظ أن مستوى الكفاءة المهنية للمذيعين ومقدمى البرامج متفاوت من دولة عربية إلى أخرى علاوة على تباين مستوى الوعى الثقافى والسياسى لدى هؤلاء الإعلاميين ففى حين تتفوق بعض الفضائيات العربية فى هذا المجال نلاحظ أن هناك العديد من الفضائيات تفتقر إلى الكوادر الإعلامية القادرة على توظيف مناخ التعددية الإعلامية فى إثراء الساحة السياسية والثقافية من خلال الإسهام بصورة جادة وفعالة فى تحقيق التنوع الفكرى وتلبية الاحتياجات الاتصالية للجمهور العربى علاوة على إعادة تشكيل الوعى الجمعى.

الجمهور العربي:

وعندما ننتقل إلى الطرف الثاني في المنظومة الاتصالية والمقصود به الجمهور يلاحظ أن وسائل الإعلام العربية تتوجه إلى جمهور أغلبه من الأميين (٧٠٪) ولذلك تشير الدراسات إلى أن الخريطة الإعلامية العربية الراهنة تعكس المواقع الهامشية التي يشغلها جمهور المتلقين حيث تتعامل أغلب وسائل الإعلام العربية مع جماهيرها باعتبارهم مستهلكين وليسوا مشاركين أو محاورين. وتستند في ذلك إلى النظرة التقليدية إلى الاتصال التي تعتمد إلى إفراغه من محتواه كعملية اجتماعية تعتمد على المشاركة وتبادل المعلومات والخبرات الإنسانية إذ تنصر على قصر أدواره على الوظيفة الإعلامية ذات الطابع الإقناعي الدعائي الأحادي الاتجاه. ورغم ما أتاحته الفضائيات من برامج حوارية إلا أن تأثيرها لا يزال محدوداً ويقتصر على قطاعات عشوائية يتم اختيارها من الجمهور بالمدن والعواصم. والواقع أن الجماهير العربية تقف عزلاء تحاصرها القيود التشريعية وتسيطر عليها مشاعر الإحباط واللامبالاة في مواجهة سطوة وسائل الإعلام العربية التي لا تعترف أصلاً بالحقوق الاتصالية للجمهور سواء في التعبير أو المشاركة.

وهنا يجدر الإشارة إلى حقيقة هامة تشير إلى المركزية الشديدة في الأنشطة الإعلامية التي تسود في الوطن العربي حيث يتركز الإنتاج الإعلامي في العواصم مما أدى إلى حرمان سكان الريف والبادي الذي يشكلون ٨٠٪ من سكان الوطن العربي وجاءت الثورة التكنولوجية في الاتصال والمعلومات كى تخلق فجوة جديدة بين المستفيدين من الخدمات الإعلامية الحديثة وبين هؤلاء المحرومين منها حيث أصبح استخدام القنوات الفضائية المحلية والدولية وشبكات المعلومات مقصوراً على الأغنياء والقادرين وأصبحت تكنولوجيا الاتصال القديمة من نصيب الفقراء.

مما أدى إلى تعميق فجوة المعلومات والمعرفة بين هؤلاء الذين يملكونها ويستخدمونها بما يعنيه ذلك من قدرة للوصول إلى المعلومات ومصادر المعرفة وبين أولئك الذين لا يستطيعون امتلاكها واستخدامها. ويمكن القول بأن الثورة التكنولوجية قد أضافت تصنيفا جديدا للخريطة الإعلامية في الوطن العربي فأصبح هناك إعلام الأغنياء وإعلام الفقراء سواء كانوا من المتعلمين أو الأميين في الريف أو الحضر علاوة على الإعلام المقروء وأعنى بها الصحافة العربية التي تخص المتعلمين فقط. هذا ويطلق خبراء المعلوماتية على الفجوة الطبقية في مجال المعلومات مصطلح الفجوة الرقمية. ويعكس هذا المصطلح جماع الفروق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والنوعية والعمرية وثنائية الريف والحضر.

(٥)

أزمة النخب وتهميش الجماهير

عندما نلقى نظرة تأملية لتاريخ الفكر العربي خلال القرنين الماضيين تنكشف أمامنا الحقيقة الغائبة أو المغيبة أو المسكوت عنها والتي تشير إلى أن هذا الفكر كان ضحية الانتباءات الأيديولوجية التي سيطرت على العقل العربي وأجبرته على قراءة واقعنا وتاريخنا بعيون مؤدجلة تحلقت حول الأفكار والمبادئ الأيديولوجية ولم تحاول أن تمد البصر إلى الواقع المعاش بتشابكاته وتعقيداته علاوة على تجاهل المعرفة العلمية بتاريخ مجتمعاتنا من خلال القراءة المتعمقة واستخلاص القوانين التي حكمت مسار المجتمعات العربية سياسياً واقتصادياً واجتماعياً وثقافياً ومن هنا نشأت الفجوة بين الفهم الصحيح للواقع والإدراك الواعي للتطورات التي مرت بها مجتمعاتنا واستيعاب أسباب نهوضها وانكساراتها علاوة على تجاهلنا لأصوات الجماهير الغفيرة التي تصنع وتبنى مقومات الحياة اليومية فلم نحاول الاقتراب منها أو التعرف على مشاكلها وهمومها وطموحاتها وحقوقها الحياتية. وإذا كان مسار الفكر العربي قد بدأ بالتوجهات الإصلاحية النهضة في القرن التاسع عشر مروراً بالتوجهات الاشتراكية والليبرالية والقومية خلال القرن العشرين إلا أنه لوحظ فشل أغلبها فشلاً كلياً أو جزئياً ونجحت بعضها واقعياً بصورة نسبية وتركت جميعها ميراثاً من الأفكار التي لم تصل إلى الجماهير ولم تؤثر في اتجاهاتها ومواقفها بل ظلت حبيسة داخل جدران وعقول النخب والطلائع المثقفة المعزولة عن جماهيرها. لقد حاولت النخب العربية مواجهة التحدي الحضاري الغربي معتقدين عن حق

أن الإنجازات التي حققتها الحضارة الغربية في مختلف المجالات العلمية السياسية والاجتماعية والثقافية ترجع جذورها إلى الحضارة العربية الإسلامية حيث نقل الغربيون علومهم عن العرب ولولاهم ما انجزت أوروبا نهضتها في مجالات الحرية والمساواة والتسامح وقبول الآخر فضلاً عن قيم التعاون والتكافل والمشاركة التي تعد من صلب الحضارة العربية الإسلامية ولكن لم تدرك النخب الثقافية العربية أن تفعيل هذا القيم والأفكار وإعادة غرسها في المجتمعات العربية التي يختلف سياقها المجتمعي وزمانها لابد أن ينتج حداثة مبتورة ومنقوصة خصوصاً في ظل نظم حكم متسلطة ذات طابع عائلي وعشائري وقبلي وطائفي.

كذلك انتكست الأفكار الاشتراكية والماركسية رغم تراثها المضيء فكرياً ونظرياً ولكنها لم تحقق أهدافها في تأسيس بدايات حقيقية للتغيير المجتمعي وفي قلبه العدالة الاجتماعية والطبقية حيث اصطدمت بنظم الحكم المتسلطة ذات التوجه القبلي التابع في معظمه للنفوذ الغربي والمسنودة بحلفائها من أصحاب المصالح (التجار ورجال الأعمال وزعماء القبائل والإقطاع الزراعي، البيروقراطية الفاسدة) فكان مصير المبشرين بالاشتراكية السجون والمعتقلات ثم التهميش والتشريد والمطاردة الأمنية وظلت الثروات العربية متمركزة في أيدي قلة من النخب المسيطرة على مفاصل الحياة السياسية والثقافية بما في ذلك القوانين والقضاء والتعليم وتحويل الجيوش وأجهزة الأمن إلى مجرد ذراع للسلطة كما اتسعت طواوير الفقراء والمفقرين المهمشين وأصبحوا يشكلون ما يزيد عن ٧٥٪ من المواطنين العرب. ولم يتدارك المفكرون الاشتراكيون العرب الخطأ الفادح الذي أفقدهم القدرة على تصحيح مسارهم رغم نبل مقاصدهم وضخامة تضحياتهم من أجل مبادئهم. ويكمن هذا الخطأ في اقتصرهم على الأطر الفكرية والمبادئ العامة للفكر الماركسي والاشتراكي ولم يحاولوا الاستفادة من استلهام التجارب المماثلة (في الصين مثلاً) التي استوعبت

واقع وتاريخ شعوبها. فيما لم يحاول الاشتراكيون العرب دراسة وفهم التاريخ العربي الاقتصادي والاجتماعي والثقافي كما لم يحاولوا الاقتراب من دراسة التراث العربي الإسلامي والتعرف على مدى تأثيره على الجماهير العربية. إذ استغرقت الأفكار الماركسية المبهرة حياة اليساريين العرب الذين تمركزوا في المدن والعواصم دون محاولة النزول إلى الشارع والريف العربي والالتحام بالجماهير ودراسة طبائعهم والتعرف على احتياجاتهم المادية والروحية والتعلم من خبراتهم وتاريخهم الشعبي غير المدون. فضلاً عما أصاب التنظيمات اليسارية من تشرذم وعجز عن التوحد بسبب آفة الانقسامات التي عانت منها جميع التنظيمات الأخرى القومية والليبرالية. ورغم أن وحدة الأرض واللغة والثقافة العربية والتاريخ الوطني المشترك ضد النفوذ الأجنبي قد زود التيارات القومية برصيد وزخم ملحوظ خلال حقبة التحرر الوطني مما رفع راية الوحدة العربية فوق الاختلافات والتناقضات التي اعتبرها القوميون طارئة ومصطنعة إلا أن الغموض والالتباس ظل يكتنف المفهوم القومي العربي حيث لا اتفاق على مفهوم القومية العربية أو مضمونها ولا تصور موحد لمقوماتها أو آليات تفعيلها خصوصاً بعد الانكسار الحاد الذي زلزل الوطن العربي عقب هزيمة يونيو ١٩٦٧. أما التيار الليبرالي فقد انحصر في النخب العربية ولم يتسلل إلى النسيج الاجتماعي والفكري للأكثرية الشعبية بسبب تركيزه على الحريات السياسية وتجاهله المتعمد للعدالة الاجتماعية التي تمثل الفريضة الغائبة للجموع الشعبية الساحقة والتي لا تزال تحيا على الموروث الثقافي التقليدي وتسيطر على توجهاتها الانتماآت والقيم الطائفية والقبلية والمذهبية وتعانى من سياسات الفقر والإفقار المتواصل من جانب الحكومات العربية وحلفائها الطبقيين.

وفيما يتعلق بالموروث الديني فالمعلوم أن كل جيل يتلقى النصوص الدينية في سياقها التاريخي ويتم تأويلها وتفسيرها في إطار السياق الذي ظهرت أثنائه ولكن

شهد العالم العربي خلال الحقبة العثمانية ركوداً فكرياً تجسد في استمرار إغلاق باب الاجتهاد في الفقه الإسلامى فضلاً عن اختلاط الدين بالسياسة إذ استخدمت حركات وجماعات الإسلام السياسى التأويلات السلفية للنصوص الدينية لتبرير مشروعها السياسى وقد ترتب على ذلك شيوع الجمود الفكرى فى المؤسسات الدينية وظهور أجيال من الائمة والفقهاء الذين يدينون بالولاء للحكام فضلاً عن عجزهم فكرياً عن تجديد الفقه الدينى يضاف إلى ذلك إسهامهم فى ابتعاد الجموع الساحقة من البسطاء الأميين عن صحيح الدين واستمرار خضوعهم للحكام. فى سياق هذه الخلفية المأزومة برزت منذ ثمانينات القرن العشرين إشكالية الديمقراطية فى الخطاب السياسى العربى باعتبارها الإشكالية المركزية وتوالت الأبحاث والندوات والمؤتمرات عن إشكالية الديمقراطية والمجتمع المدنى وحقوق الإنسان العربى. وفى ظل تصاعد اهتمام المثقفين والإعلاميين العرب بالقضايا السياسية توارت القضايا الأخرى مثل الحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية للجماهير أو حقوق المواطنة وتعد هذه الإشكالية جوهر الأزمة التى تعيشها النخب العربية وترتب عليها الخلل والتردى المخيم على المجتمعات العربية وقد برزت تجلياته بصورة غير مسبوقة عقب الثورات العربية منذ يناير ٢٠١١ والتى جاءت بقدر غير متوقع من الوعود والآمال ولكن كان الاضطراب والدمار والإحباط الذى أعقبها فاتحة لمرحلة جديدة من التساؤلات المنهكة حول مصير الجماهير العربية وحقوقها المشروعة فى العدالة والمواطنة وقدرتها على مواجهة أنظمة القمع والفساد وكيفية التصدى لسيطرة مصالح دوائر المال وأباطرة السوق وسطوة الفقهاء التقليديين الغارقين فى اجترار التأويلات السلفية للدين فضلاً عن استمرار تبعية النخب العربية للفكر الغربى.

(٦)

تصحيح المسار الإعلامى كيف؟

سعيًا لإزالة التناقض بين منظومة التشريعات والقوانين التى تتحكم فى الإعلام والصحافة وترتكز على قيمة السلطة وبين تجليات الثورة التكنولوجية فى مجالى الاتصال والمعلومات التى تدعم قيمة الحرية يمكن بلورة منظومة من البدائل التشريعية والإعلامية التى اقترحها فقهاء التشريع والقانون المستترين ونخبة من علماء وأساتذة الإعلام وذلك على النحو التالى:

أولاً: تفعيل الحق فى حرية إصدار الصحف والبت الإعلامى. وتعتبر هى المقدمة الأولى التى تستند عليها كافة الحريات الأخرى المرتبطة بحرية الرأى والتعبير فى المجال الإعلامى إذ رغم مشروعية المخاوف التى تجعل المشرع العربى متردداً إزاء إطلاق حرية تملك وإصدار الصحف استناداً إلى الخوف من سيطرة رأس المال الأجنبى ومصالح المتحكمين فى السوق العالمية إلا أن ثورة الاتصالات والتدفق اللامحدود للمعلومات عبر قارات العالم قد أفقد المنظومة التشريعية المقيدة للحريات مبررات وجودها وإزاء تلك الحقيقة الساطعة لا بديل أمام الحكومات العربية إلا أن تسعى بجدية إلى تصفية ترسانة القيود التشريعية وتنقية القوانين المنظمة للعمل الإعلامى والصحفى من النصوص السالبة للحريات وذلك فى إطار الاستجابة للتحديات التى تواجه الإعلام والصحافة العربية فى ظل التحولات الدولية المعاصرة.

ثانياً: تفعيل التشريعات التى تنص على حق الصحفى فى الحصول على

المعلومات خصوصاً وأن هذه التشريعات تفتقر إلى تحديد الآليات الضرورية لتفعيل هذا الحق فضلاً عن عدم تحديدها لنطاق ومفهوم سرية المعلومات التي لا يجوز نشرها في الصحافة أو بثها في الإعلام المرئي والمسموع الأمر الذي أدى إلى توسع السلطة التنفيذية في فرض السرية على قطاع هائل من المعلومات تحت مسميات مطاطة تتعلق بالحفاظ على الأمن القومي والأمن العسكري وهي في الحقيقة تستهدف تأمين مصالح السلطة الحاكمة علاوة على أن هذه المحظورات لم تعد صالحة للتطبيق في ظل التقدم التكنولوجي الهائل في وسائل الرصد والمراقبة وآليات الاختراق المعاصرة.

ثالثاً: إذا كان من غير المقبول دستورياً وأخلاقياً عدم التصدي للانحرافات المهنية التي تصدر من بعض الإعلاميين والصحفيين خصوصاً فيما يتعلق بجرائم السب والقذف المقترنة بسوء القصد. فلا شك أنه من غير المقبول أيضاً المبالغة في تجريم الممارسات الإعلامية التي تسعى لتفعيل حرية الرأي والتعبير والتي تشكل جوهر مهنة الصحافة والإعلام باعتبارها مهنة رأى. وهنا تبرز الإشكالية الخاصة بقضايا جرائم السب والقذف سواء عن طريق النشر في الصحف أو البث في الإعلام المرئي والمسموع حيث يستلزم الأمر ضرورة تعديل مواقف المشرع العربي من جرائم النشر وذلك بالسعي الجاد من أجل إلغاء عقوبة الحبس للصحفيين والاكتفاء بعقوبة الغرامة مع التعويض المدني وإلقاء عبء إثبات سوء نية الصحفي على سلطة الاتهام.

ومن هنا يأتي التشديد على ضرورة مواصلة الجهود من أجل إلغاء النصوص القانونية السالبة للحريات وضمان حماية الحقوق المهنية للصحفيين ليس لأهمية ذلك في حد ذاته ولكن لارتباط ذلك في الأساس بجوهر العملية الديمقراطية وكفالة تحقيقها في ضوء ما أقرته المواثيق العالمية بشأن ضمان حماية حقوق الإنسان وحرياته الأساسية.

البدائل الإعلامية:

الواقع أن الإعلاميين والصحفيين المصريين يواجهون في المرحلة الحالية تحديات كثيرة ومعقدة في ظل تعاظم نفوذ السلطة التنفيذية واحتكارها للسلطة التشريعية وتأثيرها على السلطة القضائية وغياب ثقافة المسؤولية الاجتماعية للإعلام.

ورغم أن المشهد الإعلامي الراهن يؤكد اتساع هامش الحريات إلا أن ذلك جاء على حساب الالتزام المهني والمجتمعي. إذ تشهد الساحة الإعلامية حالياً موجة متصاعدة من الانفلات وتشويه الأهداف والطموحات التي التزمت بها ثورة يناير. وأصبح كثير من الصحفيين والإعلاميين خصوصاً حديثي الخبرة يبالغون في تقييم ذواتهم قبل أن يتمكنوا من أدواتهم المهنية وتكوينهم الفكري والثقافي ويعتبرون أنفسهم شخصيات مقدسة لا يجوز المساس بهم أو مساءلتهم عما يكتبون أو يثثون من أخبار وآراء بل يعتقدون أنهم يملكون حق محاسبة الجميع دون ضوابط أو معايير مهنية وفكرية وأخلاقية. ولا شك أن الصراعات السياسية التي أعقبت ثورة يناير قد اكتسحت في طريقها معظم إيجابيات الرصيد المهني والأخلاقي التي ارستها الصحافة المصرية على مدى قرنين من الزمان إذ أصبح الإعلاميون يواجهون صراعات مركبة في بيئة سياسية مضطربة سيطر فيها الحراك السياسي على معظم الحراك المجتمعي واستخدم الإعلام كأداة أساسية من أدواته للترويج لمصالحه وزيادة مكاسبه ومحاربة خصومه مما أسفر عن سقوط الإعلاميين بين شقي الرحي فهم مطالبون بمسايرة السلطة للحفاظ على أمنهم المهني والمعيشي وفي ذات الوقت عليهم الالتزام بالضوابط المهنية والأخلاقية. وإذا كان الإعلاميون والإعلام هم الضحية الأولى للصراعات والتجاذبات السياسية والتناقضات الاجتماعية والثقافية فضلاً عن اختراقات أباطرة السوق والمعلنين التي ازدادت ضراوتها في ظل

تعثر الثورات العربية فإن الخاسر الحقيقي هو الجمهور الذي أهدرت حقوقه في المعرفة والمشاركة في ظل عجز الإعلام عن التعبير عن مجمل الواقع المجتمعي بتعقيداته الاقتصادية وتناقضاته الاجتماعية والسياسية والثقافية بعد قيام ثورة يناير وفي إطار تداعياتها. ويظل السؤال مطروحاً عن مدى إمكانية وقدرة الإعلام على الإسهام في نشر وتعزيز ثقافة التنوير وفكر التغيير الشامل والسعي لتفعيل الحقوق المدنية (حرية الفكر والتعبير) والحقوق السياسية كحق المشاركة في صنع القرارات الوطنية والحقوق الثقافية كالحق في الإبداع والاختلاف والحقوق الاجتماعية كالحق في الصحة والتعليم والحقوق الإتصالية كالحق في المعرفة والاتصال.

وهناك إلى جانب الضغوط والقيود التي تبالغ الحكومات العربية في استخدامها لتحجيم الأدوار التي يقوم بها الإعلاميون تبرز الضغوط المهنية والإدارية داخل المؤسسات الإعلامية والصحفية والتي تؤثر بصورة سلبية على بيئة العمل الإعلامي ككل سواء من ناحية مدى مشاركة الإعلاميين في صنع القرارات ووضع السياسات الإعلامية أو مستوى الأداء المهني وعلاقات العمل (علاقة الإعلاميين بالمصادر وبالجمهور وبالزملاء والرؤساء). وتشير الدراسات إلى غياب المعايير الموضوعية لقياس الأداء المهني للإعلاميين والصحفيين في أغلب المؤسسات الإعلامية والصحفية في مصر والعالم العربي فضلاً عن عدم توفر ضمانات ممارسة المهنة من خلال تفعيل التشريعات التي تحقق الحماية المهنية للإعلاميين والصحفيين والتي تنص على ضرورة تيسير الوصول إلى مصادر المعلومات كما تنص على ضرورة الالتزام بشرط الضمير عند التعاقد بين الصحفي والمؤسسات الصحفية.

ولا شك أن المجتمع المصري بعد ثورة يناير وانتفاضة يونيو تزداد حاجته إلى منظومة إعلامية تعبر عن الأهداف التي قامت من أجلها ثورة يناير واستشهد في

سبيل تحقيقها ١٥٠٠ شهيد وسقط ١٢ ألف مصاب ومعوق. نحن في حاجة إلى إعلام يعكس بأمانة والتزام مهني طموحات وهموم الشرائح الاجتماعية والتيارات الفكرية والسياسية المختلفة دون انحياز لأجندات سلطوية أو قوى تحارب الثورات بكل ما أوتيت من نفوذ سياسى ونفطى أو بيروقراطيات تستغل الظروف السائدة فتغلق منافذ الحرية بحجة حماية المجتمع من المهارات والفوضى. وهناك عدة معوقات أمام السلطة الحاكمة ستحول دون فرض سيطرتها وهيمنتها على الإعلام بعضها يرجع إلى تنامي دور الإعلام الفضائي والالكترونى خصوصاً الانترنت واستحالة السيطرة عليه والأهم من ذلك استمرار نضال الصحفيين والإعلاميين من أجل تحقيق الاستقلال المهني وتشكيل النقابات وتعديل القوانين المنظمة للعمل الإعلامى والسعى الجاد لاشراك كافة منظمات المجتمع المدني والأحزاب والنقابات المهنية من أجل خلق إعلام مجتمعى حقيقى. والمطلوب إعادة صياغة الإطار المهني والقانونى الذى يحدد مسئوليات وحقوق المنظومة الإعلامية بحيث يخلق آليات للمتابعة والمحاسبة المالية والإدارية مع الاستغناء عن القيادات الإعلامية الحالية التى ثبت تورطها فى عمليات فساد كما أنها فقدت صلاحيتها المهنية.

وهناك ضرورة مهنية ومجتمعية تستلزم:

١- تعديل القوانين المنظمة للعمل الصحفى وتفعيل النص الدستورى الخاص بإلغاء العقوبات السالبة للحرية رغم أن الصحف المصرية تخضع حالياً لعشرين قانوناً وأكثر من ثلاثين نصاً تميز حبس الصحفيين والإعلاميين والمدونين.

٢- تفعيل الاستقلال المهني والإدارى للمؤسسات الصحفية من خلال اختيار رؤساء التحرير بالانتخاب وإعداد كادر مالى جديد للصحفيين وفصل الإعلان عن التحرير وتطهير المؤسسات الصحفية من عملاء السوق والمعلنين.

- ٣- إنشاء إدارات لبحوث الجمهور والمستمعين والمشاهدين وإعداد دورات تثقيفية وتدريبية متواصلة للصحفيين مع تفعيل دور نقابة الصحفيين في إرساء آليات رادعة لحماية الحقوق المهنية من خلال مواثيق الشرف الصحفية.
- ٤- السعي بجدية لإلغاء الإطار الحالي للمجلس الأعلى للصحافة.
- ٥- الإسراع في تأسيس نقابة للإعلاميين في مجال الإعلام المرئي والمسموع وتفعيل دورها في حماية حقوق الجمهور في المعرفة والاتصال.

(٧)

نحو خطاب معلوماتى بديل

انطلاقاً من الحقيقة التى تشير إلى أن تكنولوجيا المعلومات رغم ما تتميز به من إيجابيات كثيرة فإن تجلياتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية قد كشفت عن كثير من الجوانب المعتمدة والمخاطر المستحدثة التى تتمثل فى الفجوة الرقمية والإرهاب الرمزى والابتزاز المعلوماتى وطغيان النزعة الترفيفية، فالواقع أن الثورة العلمية والتكنولوجية والمعلوماتية على رأسها قد أحدثت تحولات عميقة فى أنظمة العمل والعلاقات الاجتماعية وثقافة المجتمعات. وقد نجح أنصار النموذج العولمى الرأسمالى فى توظيف تكنولوجيا المعلومات للحفاظ على موازين القوى وتأمينها لمصالح الأقوياء من أباطرة السوق العولمية.

ورغم أن مناهضى العولمة لم يتوصلوا بعد إلى بلورة مشروع معلوماتى بديل فإنهم استلهموا الكثير من الاستخلاصات والتحليلات من الأبحاث التى يتوالى صدورها عن بعض المراكز العلمية المتخصصة فى تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات المتخصصة فى أوروبا والولايات المتحدة وأمريكا اللاتينية.

يركز الخطاب المعلوماتى المناهض للعولمة الرأسمالية على إبراز مخاطر وسلبات النموذج الذى تطرحه العولمة الرأسمالية الاقتصادية لتوظيف واستخدام تكنولوجيا المعلومات. ويستعين مناهضو العولمة بالمدخل الاجتماعى الثقافى لكشف

تناقضات النموذج العولمي التي تتجلى بصورة ساطعة على صعيد المعلومات خصوصاً في إطار النقلة النوعية التي أحدثها المتغير المعلوماتي في حقل الاقتصاد، حيث انتقل من مرحلة الإنتاج في عصر الصناعة إلى مرحلة تكرار الإنتاج في عصر المعلومات الذي يقوم على أساس أن المنتج المعلوماتي وأصوله من برامج وبيانات ومعلومات وأفلام ونصوص وأفكارا وموسيقى وفنون جميعها قابلة للنسخ، ولا يقتصر الأمر على ذلك بل يشمل العمالة البشرية أيضاً التي يمكن نسخها عن طريق الروبوت (الإنسان الآلي) والنظم الذكية.

ويسعى مناهضو العولمة إلى طرح رؤاهم البديلة التي لا تزال في طور التعديل والتطوير من خلال تنفيذ الرؤى التي يروج لها أنصار النموذج العولمي الرأسمالي وإبراز التناقضات والمغالطات التي ينطوي عليها مشروعهم المعلوماتي وذلك على النحو التالي:

أولاً: يرى مناهضو العولمة أن مشروع الطريق السريع للمعلومات (Information super highway) الذي يمثل النواة الصلبة للمشروع المعلوماتي العولمي، يستهدف أساساً خدمة الثقافة الأمريكية وترويج منتجاتها من سلع وخدمات، كما يستلزم تحقيق هذا المشروع الخصخصة الكاملة لقطاع الاتصالات على مستوى العالم وتحريره من التشريعات والنظم التي كانت تحد من نشاطه في الماضي، ويروج له أنصار العولمة تحت شعار براق ترفعه شركات الاتصالات العالمية زاعمين أنه سوف يحقق خدمات اتصالية أكثر تنوعاً وأفضل من حيث جودة الخدمة وتوفرها، والواقع أن هذا النموذج قد أسفر عن نشوء ظاهرة الاندماج المؤسسي بين كل من صناعة الاتصالات والإعلام والسينما ودور النشر وشركات برمجة الكمبيوتر وخدمات الإنترنت، الأمر الذي أدى إلى احتكار الكيانات العملاقة لصناعة المعلومات وتحويلها إلى صناعات كثيفة التكنولوجيا

وكثيفة رأس المال، ومن ثم تهميش واستبعاد الكيانات الصغرى من هذا المجال الحيوى الذى تم إخضاعه تماماً لآليات السوق مما ترتب عليه بروز فجوة طبقية فى مجال الاتصال والمعلومات بين هؤلاء الذين ينعمون بخدمات اتصالية ومعلوماتية متقدمة فى دول الشمال المتقدم تكنولوجيا وأولئك الذين يعانون الحرمان من الحدود الدنيا لحقوقهم الاتصالية والمعرفية فى دول الجنوب ويطلق خبراء المعلوماتية على الفجوة الطبقية فى مجال المعلومات مصطلح "الفجوة الرقمية" للدلالة على الفرق بين من يمتلك المعلومة ومن يفتقر إليها، وقد نشأ هذا المصطلح فى الولايات المتحدة الأمريكية فى نهاية التسعينيات من القرن الماضى. ويعكس هذا المصطلح جماع الفروض الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والنوعية (ذكر وأنثى) والعمرية وثنائية الريف والحضر. وقد اتسع هذا المفهوم وأصبح يشمل مستويات مختلفة للفجوة الرقمية بين مناطق العالم وداخل كل دولة على حدة.

وتباين ردود أفعال مناهضى العولمة إزاء الفجوة الرقمية، ولكنهم يجمعون على أنها مشكلة متعددة الأبعاد وتجمع بين جوانبها كل أشكال التفاوت الاجتماعى والاقتصادى والثقافى، ولا يمكن اعتبارها مشكلة تكنولوجية فحسب فالتكنولوجيا كانت دوماً منتجاً اجتماعياً ثقافياً سواء فى نشأتها أو استخداماتها وتوظيفها، ولذلك يرتبط إلغاء الفجوة الرقمية بإلغاء الفجوات الأخرى الاقتصادية والاجتماعية والثقافية محلياً وعالمياً. وينظر مناهضو العولمة إلى الفجوة الرقمية باعتبارها أحدث مظاهر الأزمة الهيكلية التى يعانى منها النظام الرأسمالى العولمى الراهن.

ثانياً: يجرى التهليل لثورة المعلومات على أنها ثورة مختلفة تماماً عما سبقها من ثورات تكنولوجية، فهى تتسم باللامركزية ومعاداة السلطوية وتدعمها تقنيات مبتكرة قادرة على تخليص البشرية من تراتبية القوى المركزية وقدرتها الطاغية على

تتميش الأطراف وتعد شبكة الإنترنت وهى تكنولوجيا طورتها وزارة الدفاع الأمريكية مثلاً ساطعاً على هذا التحو من نظم المعلوماتية المركزية إلى نظم المعلومات اللامركزية، فهى شبكة بلا سلطة مركزية وبلا ترتيبية سلطوية، ورغم أن مناهضى العولمة الرأسمالية يقرون بأهمية الإنترنت باعتبارها من أعظم منجزات الثورة العلمية والتكنولوجية خصوصاً وأنها شكلت أساساً متيناً فى تنظيم مظاهراتهم واحتجاجاتهم على مستوى العالم.

كما بثت الإنترنت روحاً جديدة فى فلسفة وأداء الحركات المناهضة للعولمة، حيث وفرت لهم آليات الاتصال والتنسيق دون الحاجة إلى وجود مركز رئيسى للقيادة ومع أقل قدر من البيروقراطية، فإن هذه المزايا الإنترنتية لم تحوّل أبصارهم عن تنفيذ المزاغم والوعود التى يروج لها المتحكمون فى سوق التكنولوجيا المعلوماتية التى تدور حول تحقيق التنمية من خلال نشر المعرفة للجميع. ففى الوقت الذى تقدم فيه ثورة المعلوماتية مزايا وفوائد للدول الغنية وعدد قليل من الشرائح العليا فى بعض الدول النامية فإن المليارات من البشر لم يشملهم حزام المعلومات حالياً، ويواجهون تهميشاً سياسياً واقتصادياً، وإذا كان آل جور نائب الرئيس الأمريكى الأسبق قد ذكر فى إحدى خطبه فى جمع من أباطرة التكنولوجيا الرقمية عام ١٩٩٤، بأنه يتوقع عودة عصر أثينا الديمقراطية من جديد من خلال المتدييات التى سوف تنشئها البيئة الأساسية العالمية للمعلومات، فإن مناهى العولمة يرون أن التلغراف الذى مارست به بريطانيا والقوى الإمبريالية الأخرى هيمنتها على أقصى أركان المعمورة لم يحقق ما زعموه وقت ظهوره على أنه يمثل (حزماً من الحب يحيط بالأرض ويوحد الإنسانية) بل جعل البشرية أكثر توحداً تحت سيطرة الحزام البريطانى المحكم الذى لا يسوده بالتأكيد الحب فالمعلومات العالمية التى تحدث عنها آل جور يمكن أن تكون فى نهاية الأمر حزام الحب الذى يحيط بالأرض ويوحد البشرية، ولكن تحت هيمنة أمريكا فى هذه الحقبة من تاريخ العالم ويضيفون

قائلين: إن المعلومات قوة وآية ذلك أن وصول تليفزيون إلى إحدى قرى الهند يمكن أن يساعد الفلاحين في الحصول على أفضل الأسعار ويزيد من فرص العمال، لكن هؤلاء الذين لا يستطيعون توفير تكاليف هذه الوسيلة سيجدون أنفسهم وقد أزيحوا وسقطوا في أسفل قاع الخريطة الاقتصادية والسياسية حتى في داخل السياق المحدود لقريتهم.

ويستشهدون بها جاء على لسان "نيلسون مانديلا" في إحدى خطبه من أن ثلثي سكان العالم لم يجر مكالمات هاتفية واحدة طيلة حياته، والواقع أن المشهد التنموي يشير إلى أن معظم الدول النامية لا تمتلك نظام اتصال تليفوني يعمل بكفاءة، وهو يعد عامود خيمة البنية الأساسية الخاصة بتكنولوجيا المعلومات وتحتاج تكلفة توفير هذه المستلزمات إلى مليارات إن لم تكن تريليونات من الدولارات.

يرى مناهضو العولمة الرأسمالية أن الأشكال الجديدة لممارسة الديمقراطية التي بشر بها آل جور وسواه من العولمين الرأسماليين والتي ستوفرها الإنترنت من خلال إسقاط الحلقات الوسيطة بين الحكام ومواطنيهم لن تتحقق بسبب سيطرة رأس المال والحكومات الاستبدادية على وسائل الإعلام وتوظيفها في تضليل الجماهير خصوصاً وهي تسعى حالياً لضم شبكة الإنترنت ضمن الترسانة الإعلامية مما يخشى معه في ظل هذا الوضع أن تتحول ديمقراطية الإنترنت إلى نوع من الفوضى سيؤدي بدوره إلى مزيد من تدخل الحكومات من أجل إحكام السيطرة على الرأي العام.

كما يحذرون من احتمال ظهور نوع جديد من البيروقراطية يطلق عليه خبراء المعلوماتية مصطلح (المعلوقراطية) حيث تحل الآلة محل طبقة البيروقراطيين التقليديين وتحكم قبضتها على مصائر البشر وذلك في ظل ظهور ما يعرف بمصطلح الحكومة الإلكترونية.

ولمواجهة هذه التحديات التكنولوجية التى قلبت أحوال البشر ومصالحهم وعلاقاتهم تبدو الحاجة الملحة للمساءلة عن مدى مشروعية من هم فى السلطة ومسئولياتهم عن ضمان وكفالة الحقوق المعلوماتية لجميع المواطنين أو بمعنى آخر تحقيق المواطنة المعلوماتية خصوصاً وأن هذه الحقوق غير مكفولة واقعياً وتشريعياً بسبب تحكم القوى العولمية فى امتلاك واستخدامات الموارد العظيمة للمعلومات والاتصالات التى يعج بها عالمنا اليوم.

ومن هنا تبرز ضرورة تفعيل المقولة التى يرددها أنصار العولمة الرأسالية والتى تشير إلى أن مجتمع المعلومات يجب أن يتسم بالتدفق الحر والمفتوح للمعلومات لجميع مواطنيه ومؤسساته ويتطلب تحقيق ذلك ضمان المساواة فى الوصول والنفاذ إلى المعلومات الذكية ووجود بنية تحتية للاتصالات.

وهذا غير متحقق بالفعل للغالبية العظمى من سكان الكوكب الأرضى ولن يتحقق فى ظل سياسة الاستقطاب والاحتكار المعلوماتى السائد حالياً. وسعياً لتحقيق المشاركة المعلوماتية نشدد على ضرورة تكاتف مؤسسات ومنظمات المجتمع المدنى من أجل إنشاء شبكات معلوماتية مستقلة تعبر عن جموع المهمشين فى جميع المجتمعات مع ضمان حمايتها بتشريعات وضوابط تكفل لها تحقيق المصداقية واحترام حقوق الآخرين فى الاختلاف وتجنب حروب وقرصنة الفضاء المعلوماتى.

وفى ضوء ذلك نقترح تصميم أجندة معلوماتية جديدة تقضى بضرورة إدخال تكنولوجيا المعلومات للمجتمعات الريفية بإنشاء منافذ وأكشاك للكمبيوتر فى القرى والتجمعات النائية تشرف عليها الجمعيات الأهلية وبث برامج لتوعية الفلاحين بحقوقهم وإرشادهم إلى الأساليب الزراعية الحديثة لمساعدتهم على تحسين إنتاجهم، وتشمل سائر الخدمات الموجودة على الخط (On line) مثل توفير فرص العمل وأساليب الحفاظ على البيئة ومنظومة القيم الثقافية والأخلاقية وتعمل على صيانة التراث الشعبى من الاندثار.

وتستهدف هذه الأجندة المعلوماتية المناهضة للاستخدام التجارى لتكنولوجيا المعلومات، تأسيس المعرفة بمعناها العلمى والإنسانى المتكامل والتي لا تتحقق من خلال التدفق الحر للمعلومات الذى لا يصنع معرفة حقيقية، بل أدى بالفعل إلى نوع من التخمة المعلوماتية التى أهدرت إمكانية تشكيل المعرفة الصحيحة فضلاً عن توظيفها فى فهم الواقع وتفسيره توطئة لتغييره إلى الأفضل والأكثر عدالة.

(٨)

ميادين الثورات العربية

ميدان التحرير نموذجا

في ظل التدهور الاجتماعي الذي أصاب مصر خلال العقود الماضية . أصبحت الميادين مجرد مواقع جغرافية حيث انتشرت أعراض التفتت والانعزال بين الفئات الاجتماعية المختلفة وساعد على تفشي ذلك النظام الحاكم المعزز بالمؤسسة الأمنية حيث حرص على افتعال إحداث الفتنه الطائفية مع اختراق النظم التعليمية من جانب القطاع الخاص والأجنيى حتى أصبح التعليم سلعة ومع هجرة ملايين المصريين الى الخليج وأوروبا وأمريكا تراجع الانتفاء للوطن بموروثاته الثقافية وقيمه الاجتماعية حتى أصبح الهرولة والسعى لاكتساب الجنسية الأمريكية عملا لا يثير الاستياء أو الدهشة ومع تراجع دور النقابات والروابط المهنية بسبب الضغوط والقيود الأمنية والسياسية فقدت النقابات والأحزاب دورها الاجتماعي كساحة للتفاعل الاجتماعي والإنساني . ولا شك ان ثوره يناير والالتحام الفذ بين الجماهير والطلائع الثورية الشابة أعادت اللغة المشتركة بين المجموعات البشرية التى شاركت في أحداث الثورة واستعاد الميدان دوره الاجتماعى حيث أصبح ساحة للتفاعل والتواصل بين الجماهير الذين جمعتهم أحلام الخلاص من القهر والأمل في رد الاعتبار لأنفسهم وبعد الانحسار الجزئى للمواجهات بين الثوار والشرطة تصاعد التواصل بين الأفراد وبدأو يعبرون بصيغ مختلفة عن أفكارهم ومشاعرهم من خلال الأشعار المحفوظة والمرجلة والأغاني ولوحات الخط على الورق

والجدران والقماش وكلما طالت الإقامة المشتركة في الميدان توثقت روابط التفاعل بين المعتصمين وبدأ اكتشاف كل منهم للآخر وتوارت الصور النمطية المشوهة وحل محلها الصور الواقعية عن أولاد الشوارع وعيال النوادي والعيال السيس والبنات المزز والأقباط والأفندية وسلفيو كستا والألتراس والمنافقة والصعايدة . كل هذا الخليط من النماذج البشرية . انصهر في بوتقه الثورة وسقطت الأقنعة والمبالغات السلبية وحل محلها الرؤية الواقعية المحسوسة في هذه اللحظة المشحونة بالزخم الثوري والوجداني والتي تتراوح بين الأمل والخوف والقلق والتحفز ظهرت صيغ جديدة ومتجددة للتعبير عن كوامن العقل والوجدان واتخذت أشكالاً وصيغاً متنوعة منها الشعار ولوحات الخط على الجدران والقماش والورق وأشكال التعبير الحركي والموسيقى والغناء وأهم ما يميز هذه الصيغ الطابع الجماعي فلم يعد دور الجمهور يتوقف على التلقي السلبي للنصوص أو الرسوم بل يضيف إليها ويعدل فيها وبرز الصور في هذا الإبداع الجماعي ظهرت بصورة كثيفة على الجدران وعرفت باسم الجرافيتي وانتشرت في الشوارع المحيطة بالميدان ومن أشهرها ما ظهر على جدران الجامعة الأمريكية وشارع محمد محمود وشملت صور الشهداء والثورة وقصيدة أمل دنقل (لا تصالح) وفؤاد حداد (إيماناً بالنصر قوة مصر بالإنسان) . لقد قدم الشباب لوحة حية للثورة بصيغ فنية جماعية رفيعة المستوى قام بحراستها الفتيان الذين عرفوا بأولاد الشوارع كما شارك الشباب في شرح محتوياتها وأهدافها للجمهور وهكذا تحول شهداء الثورة إلى أبطال ورموز جليلة لا انتفاضة الشعب المصري . ولا تزال جذريات الثورة تلقى استجابة جماهيرية متواصلة ولا شك أن هذه الجداريات تمثل امتداداً عضوياً للتراث الثقافي المصري بدءاً برسوم الفراعنة على جدران المعابد ومروراً بالأيقونات القبطية على جدران الكنائس وحرص الحجاج المصريين على تزيين واجهة منازلهم برسوم تسجل رحلتهم المقدسة إلى بيت الله الحرام ولذلك تعد رسوم الجرافيتي نموذجاً عصرياً للتراث المصري بجذوره الفرعونية والقبطية والعربية الإسلامية.

(٩)

الصراع بين الوعي والإرهاب

تعتبر الثورات الشعبية التحريرية العفوية التي لا يسبقها تدبير أو تنظيم نقطة البداية في طريق اكتساب الوعي الجمعي تدريجياً عبر مسار متعرج زمنياً يرتبط بمدى قدرة المجتمع على مقاومة المحاولات التي لا تتوقف، لمسخ الوعي الذي اكتسبته الشعوب من خلال الثورات. فالقوى المضادة للثورات لا تتوقف عن محاولاتها تشويه وطمس هذا الوعي الذي انبثق عن الثورات، والذي يصطدم بالاضطراب المترتب عليها. ولا شك أن هذا الاضطراب يؤثر سلباً في بناء واستكمال عملية الوعي ويطيل أمدتها. وهذه هي المعضلة التي تواجه الثورات العربية التي أنتجت مساراً تحريراً مضطرباً انزلق إلى العنف بدرجات متفاوتة وأصبح في متناول القوى المضادة للثورات أن تجد في الإرهاب فرصة لطمس الوعي، بحيث أصبح الأمن مقدماً على ما عداه تحت شعار "لا صوت يعلو على صوت المعركة". وتبدو حالة مصر في الذكرى الرابعة لثورة يناير بالغة الدلالة، خصوصاً تداعياتها في أوساط الشباب الذي أصيبت قطاعاته الأوسع بصدمة وليس فقط بإحباط. بسبب نجاح القوى المضادة للثورة في القفز على موجتها الثانية في ٣٠ يونيو وتوجيهها في اتجاه معاكس لأهداف ثورة يناير. فقد نشطت آلة طمس الوعي من خلال الإعلام، مستغلة الارتباك المجتمعي ومستثمرة الأخطاء الفادحة لجماعة الإخوان، حين وصلت إلى السلطة واصطدمت بالجميع. ورغم أن الاضطراب الذي تصاعد وتفاقم عقب الجولة الثانية في ٣٠ يونيو عطل الأثر

المتوقع باتجاه انحسار الإرهاب الذي تنامي مجدداً متزامناً مع سعى القوى المضادة إلى تشويه الثورة وإنكار طابعها السلمى، مما أدى إلى إسقاط الخط الفاصل بين الثورات السلمية والعنف الإرهابى، وبين الاحتجاج المدنى والعمل المسلح. ومن الثابت أن هناك عدة أصوليات أفرزت الإرهاب، أبرزها الأصولية اليهودية، التى ترجع إلى ستة عقود، وأفرزت إسرائيل العلمانية وعدوانها اليومى على كل ما هو عربى إسلامى ومسيحى فى فلسطين التاريخية، ويعتبرها الغرب أصولية صديقة متحالفة مع مصالح الغرب، وأفرزت إرهاباً لا يهدد مصالح الغرب بل يدعم نفوذه، وأصولية سنية وشيعية انفجرت من واقع ملئ بالفقر والفساد واستبداد الحكام العرب وشيوع النفاق والازدواجية فى التعامل الدولى ويجرى التعسف معها واعتبارها إرهاباً يهدد الغرب ومصالحه. ولا شك أن أبرز إنجاز حققته الثورات العربية أنها اتاحت للجموع الشعبية إدراك أن طغيان الحكام وفسادهم وتبعيتهم للغرب وإهدارهم للكرامة الإنسانية هو موطن الداء وأن تحرير المجتمعات العربية يبدأ بتنوير وتوعية شعوبها من خلال الثورات، فما لم يتعود الناس أن يفكروا بأنفسهم لأنفسهم (على حد قول الفيلسوف الألمانى عمانوئيل كانط) سيبقون كالدمى فى أيدي حكام جدد يحلون محل الطاغية المخلوع. هذا وتبرز المشكلة التى واجهت المجتمع المصرى فى ظل ثورة يوليو ١٩٥٢. عندما أثirt قضية (أزمة المثقفين)، وهى تواجها بذاتها بعد ثورة يناير وجولتها الثانية فى ٣٠ يونيو، فقد بادرت النخب المثقفة المعارضة إلى اعتزال الوضع السياسى القائم على قمة السلطة الجديدة، وذلك بسبب وطأة التناقض ما بين مسيرة حفظ الكيان الوطنى واستعادة التعافى الاقتصادى من جهة وبين مسار الحريات المدنية والسياسية للأفراد والجماعات من جهة أخرى، مما يهدد باتساع الفجوة بين المثقفين والسلطة. فالمثقف العربى يواجه الآن تحدياً مزدوجاً يعيش من خلاله بين شقى الرحى تتنازعه متطلبات الحفاظ على كيان الدولة وحمايتها من الإرهاب المتصاعد وبين السعى إلى

تحقيق أهداف الثورة بالعيش الكريم، على أساس من الحرية والعدالة والكرامة للمجتمع ككل.

كيف يوفق المثقف الثوري بين هذه المتناقضات، ونحن نعيش في أعقاب ثورة شعبية أطاحت بنظام تسلطى فاسد وانتفاضة ثانية أطاحت بمشروع لإقامة نظام تسلطى بديل تحت شعار (الإسلام السياسى) كما أننا نعاصر أجواء عربية مضطربة تتساقط في ظلها الكيانات المجتمعية ويتصاعد الإرهاب بأشكاله المختلفة. هل ينعزل المثقف الحقيقى المهوم بقضايا وطنه أو يعتزل وينزوى أم يصمد ويواصل دوره التاريخى في نشر الوعى بين الجموع المتعطشة للتغيير؟ هذا هو السؤال والإجابة محسومة لصالح التغيير.

(١٠)

الإعلام وقضايا الفقر والجوع فى مصر

سوف ابدأ هوامشى بتلك الصورة الكاريكاتيرية التى رسمها أحد الرسامين الأمريكين خلال فترة الحروب الأهلية فى كل من الصومال ويوغوسلافيا القديمة والجمهوريات الآسيوية للاتحاد السوفيتى السابق ابرز هذا الرسام الأمريكى صورة الشعوب وهى تتصارع وتتقاتل بالأيدى وبالرشاشات والبلط والسيوف والخناجر بينما جلس الرأسماليون العالميون موحدين مبتسمين يرسمون الخرائط ويدخنون السيجار ويجمعون الأموال فى غرف مجالس إدارتهم. هذا هو الواقع العالمى الذى نعيشه والذى تثبتته تلك الأحداث التى جرت ولا تزال تجرى فى العالم منذ انتهاء الحرب الباردة ولا شك أن هذه الصورة الكاريكاتيرية الدالة تشير إلى التناقض الحاد الذى يشطر العالم إلى قسمين غير متكافئين الشمال بأضوائه وثرواته وتقدمه التكنولوجى المبههر - حيث التجمعات الدولية الاقتصادية العملاقة التى تنتقل بأعمالها وأنشطتها حيثما تتوفر الظروف المثلى لنموها وأرباحها فتوحّد الأسواق وتزيل الحواجز وتتحكم فى مفاتيح التقدم التكنولوجى وتفرض العولمة قوانينها والنصف الآخر من الصورة يشير إلى الجنوب حيث المواقع الأكثر فقراً والأقل قدرة على المواجهة والتى امتلكت بحكم تراثها التاريخى تركه هائلة من الهموم السياسية والاجتماعية لم تمكنها من مواجهة تحديات مرحلة ما بعد الاستقلال السياسى وتعيش أغلبها على الزراعة القديمة أو الصناعة البدائية وبالتالى لم يتحقق لها التراكم

الرأسمالي الذي يسمح لها بتجاوز دائرة التخلف والاستنزاف ولذلك ظلت تنتظر القادمين من الشمال من أجل الاستثمار وزيادة الدخل القومي والتحرر من أسر التبعية الفقر والإفقار المتواصل ولكن ذلك لم يتحقق ابداً إلا في تلك المواقع التي تخدم مصالح ذلك الضيف القادم بأمواله والذي يدعى السعى لتقديم خدماته للشعوب الفقيرة المغلوبة على أمرها.

يقوم المهاتما غاندى أن الفقر هو أسوأ أشكال العنف كما يضيف هو شى منه أن الحرية الحقيقية هى تلك التى تؤدى إلى التحرر من الفقر وإذا كان الأول قد خاض أنبل عملية نضال سلبية ضد المستعمر البريطانى وتولى الثانى قيادة ملحمة النضال التاريخية للشعب الفيتنامى ضد فرنسا ثم الولايات المتحدة فإن كليهما اتفق على أن الاستقلال عن قوة الاحتلال الأجنبية لا يكفى لتحقيق الحرية والتحرر وإنما يتم تحقيقهما بالخلاص من الفقر وتنطبق أقوالهما على جميع شعوب العالم الثالث التى لم تناضل من أجل انتزاع استقلالها كى نضعه فى متاحف التاريخ أو كى تواصل الاحتفالات الموسمية فى ذكرى الاستقلال وإنما كى تبدأ منه مسيرة التحرر الحقيقى للناس أى رفع البؤس والقافة والعوز الذى ظل يحاصرهم قبل وبعد الحصول على الاستقلال.

تشير التقارير الدولية إلى الثالث الخطير الذى يحاصر شعوب العالم الثالث ويجعل ٩٠٪ من أبنائه محرومين تماماً من ممارسة حقهم الطبيعى فى المشاركة السياسية والاقتصادية ويتشكل هذا الثالث من القوانين التفصيل لأصحاب النفوذ والبيروقراطية وسوء توزيع الثروة فعلى امتداد هذا العالم الجنوبى توجد فوارق رهيبية بين الطبقات داخل المجتمع الواحد. هناك تمييز مشين فى نظم حيازة الأرض لصالح الأغنياء (فى مصر مثلاً مازال ٢٠٪ يسيطرون على ٧٠٪ من الأراضي الزراعية) بالإضافة إلى إهمال الزراعة فى كثير من بلدان الجنوب فى الوقت

الذى لم يتحقق انخفاض ملموس في معدلات الزيادة السكانية الأمر الذى أدى إلى زيادة العجز في الموازين التجارية لهذه البلدان وبالتالي زيادة حجم المديونية الخارجية وزيادة أعباء خدمتها.

هذا بالإضافة إلى إهدار القلة المسيطرة سياسياً على نظم الحكم للفوائض الاقتصادية المتاحة في أوجه انفاق استهلاكية بذخية علاوة على تحكم المنظمات الاقتصادية الدولية وفي مقدمتها البنك الدولي ودوره في توجيه الاستثمارات في تلك البلدان فلم تحظ الصناعات الإنتاجية والقاعدة التكنولوجية للاقتصاد القومى بالأولوية الواجبة وأتجه معظم الاهتمام الى الصناعات الاستهلاكية وصناعات التجميع.

وقد تفاقم التفاوت الواضح في الدخل والثروة بين الفقراء والأغنياء من جراء عدد لا يحصى من السياسات المحلية والعالمية فقوانين الضرائب على سبيل المثال والتي تبدو مثالية لأقصى درجة على الورق نجدها في التطبيق تجبى بلا تمييز من أولئك العاجزين عن إخفاء أموالهم بعيداً في البنوك الأجنبية والعاجزين عن التهرب من الضرائب وبالمثل تعمل اللوائح فائقة الصرامة ضد الفقراء حيث يدفع فقراء الريف والحضر نسبة عالية من دخولهم فيما يسمى ضرائب الفساد التي ترتبط بالحصول على إذن من البيروقراطية البيزنطية بما يتطلبه ذلك من أوراق لا نهاية لها وعلى مدى السنين وفي إطار هذا الاقتصاد الخفى ترسخت قيم الرشوة دافعة أمامها جزءاً كبيراً من الأرباح إلى أباطرة السوق السوداء المشبوهين.

إن الميزانيات القومية لا تتحيز فقط للتنمية الاقتصادية الحضريّة دون التنمية الريفية أو للإنفاق العسكري دون الإنفاق الاجتماعي بل هي تسبى أيضاً التوزيع بين القطاعات التي تستهدف ظاهرياً خدمة الفقراء وأعنى بها التعليم والصحة حتى المعونة الدولية للتنمية التي تستهدف بالقطع أفقر الفقراء اتجهت لا للوفاء

بحاجة القطاع الأفقر من المواطنين في بلدان العالم الجنوبي بل أتهجت صوب القطاع الأعلى. كذلك أهملت الأبحاث الزراعية على المستويين الوطني والدولي المعدمين من الفقراء. وبنفس الطريقة توجه ميزانيات التعليم نحو الأغنياء ويتاح لأبنائهم فرصاً استثمارية لاستكمال تعليمهم الجامعي من خلال جامعات استثمارية تضمن لهم السيطرة على سوق التعليم والعمل في آن معاً. وفي مجال الرعاية الصحية يخصص في معظم دول الجنوب حوالى ٧٠-٨٥٪ من نفقات الصحة العامة للرعاية العلاجية الباهظة بينما لا ينال الطب الوقائي ورعاية الصحة العامة أكثر من ٣٠٪ فقط.

وفي حين تضيق مصيدة الفقر العالمية خناقها ويتزايد الإحساس بعدم الأمان والحرمان لدى فقراء العالم الجنوبي تمتد ظروف التدهور البيئي إلى المزيد من الأراضي وإن كانت الخبرة العالمية تشير إلى أن الفقراء لا يؤذون بيئتهم عمداً إلا وهم مكرهون فهم يدفعون إلى هاوية المجاعة ويطردون من أراضيهم وينقلون إلى أطراف البلاد من جراء ضغوط النمو السكاني ويحرمون من البدائل بقوانين جائرة بينما لا يتوفر لديهم كميات كافية من الأرض والماء ورأس المال ولذلك فالمحور الأساسى الذى تدور حوله دوامة الفقر هو غياب الموارد وفساد السياسات المحلية والعالمية.

المشهد العالمى الراهن:

قبل أن أتطرق إلى تناول مواقف ومسئوليات الإعلام العربى تجاه قضايا الفقر فى الريف والحضر سواء فى دول الشمال الصناعى المتقدم أو دول الجنوب النامى أود أن أشير فى عجالة إلى بعض الحقائق التى تلقى بظلالها السلبية على كافة الممارسات الإعلامية.

أولاً: أن العالم لا يزال يعيش في ظل نظام اقتصادى وسياسى واجتماعى وحضارى تعمل آلياته تلقائياً لصالح المركز الذى يتكون من عدد محدود من الدول الغربية والمؤسسات الاقتصادية الدولية ويفرض سياساته على الأطراف أى دول الجنوب من خلال أساليب متنوعة تتفاوت ما بين القوة العسكرية التى تستخدم فى العدوان المباشر أو التهديد به وأشكال الهيمنة الاقتصادية التى تشمل مجالات الصناعة والتكنولوجيا ورؤوس الأموال وأخيراً أنماط السيطرة الإعلامية التى تتمثل فى وكالات الأنباء الغربية والأقمار الصناعية ووكالات الإعلان الدولية وتكنولوجيا الاتصال وبنوك المعلومات وشبكات المعلومات الدولية.

ثانياً: الدور الذى تقوم به المنظمات الاقتصادية الدولية مثل صندوق النقد الدولى والبنك الدولى ومنظمة التجارة العالمية فى إدارة الاقتصاد الدولى وتوجيهه لمصلحتها هذا بالإضافة إلى زيادة سطوة الاحتكارات العالمية التى تتمثل فى اتساع سيطرة الشركات المتعددة الجنسية والتى تهيمن على ٧٠٪ من التجارة العالمية و ٨٠٪ من الاستثمارات الخارجية وتتحكم فى نقل التكنولوجيا وتسيطر على الأسواق العالمية.

ثالثاً: رغم أن أشكال النهب الاستعمارى القديم لا تزال سائدة مثل ارتفاع أسعار فوائد القروض الأجنبية وارتفاع نسبة ما يحول من أرباح الاستثمارات الأجنبية واتجاه نسب التبادل الدولى فى غير صالح الدول النامية فى الجنوب إلا أن آليات الاستغلال الجديدة تتمثل فى استراتيجيات الدول الصناعية المتقدمة لتوجيه أنماط التنمية فى دول الجنوب بما يلائم التشكيل الجديد للتقسيم الدولى للعمل فى ضوء ثورتى التكنولوجيا الاتصالية والمعلوماتية وبما يبقى على استمرار تشوه الهياكل الإنتاجية للدول النامية ويضمن استمرار تخلفها التكنولوجى لتكون فى خدمة استراتيجيات التنمية فى البلدان الرأسمالية ويتم تنفيذ هذه الاستراتيجيات

من خلال المنظمات الاقتصادية الدولية التى سبق الإشارة إليها (صندوق النقد الدولى والبنك الدولى... الخ) ولعل من أبرز الأمثلة على أشكال الاستغلال الجديدة ما يتمثل فى سيادة نمط عقود تسليم المفتاح الذى تبقى المستثمر والمنتج المحلى معزولاً عن أسرار التقدم الصناعى والتكنولوجى خاضعاً لشروط الشركات الأجنبية فى التشغيل والصيانة.

رابعاً: الدور الذى تقوم به وكالات الإعلان الدولية (١٠ وكالات عالمية) فى الترويج للتكنولوجيا الملوثة للبيئة وتشجيع الأنماط الاستهلاكية التى تهدف فى الأساس إلى إلحاق الضرر بخطط التنمية الوطنية فى دول الجنوب فضلاً من تأثيرها السلبى على مصداقية وسائل الإعلام لدى الرأى العام.

خامساً: التقدم التكنولوجى الهائل الذى احرزته وسائل الإعلام ووصولها إلى مجموعات سكانية متنوعة وعدم اقتصارها على سكان المدن والعواصم مما أدى إلى حدوث تحول أساسى فى طبيعة الأدوار والوظائف التى تقوم بها وسائل الإعلام المقروء والمرئى والمسموع فى معالجتها لمختلف القضايا الاجتماعية والاقتصادية والثقافية وفى قلبها قضايا الفقر والجوع التى تتحدد وفق القوانين التى تحقق مصالح النخب والقوى الاجتماعية التى تتحكم فى مصادر الثروة الاقتصادية والنفوذ السياسى.

سادساً: رغم صعوبة حصر عدد الفقراء والجوعى فى العالم إلا أن هذه الصعوبة لا ترجع إلى نقص المعلومات على صعيد العالم بل ترجع إلى التفاوت فى مناهج تعريف الجوع والفقر وقياسه وتفيد تقارير الأمم المتحدة ووكالاتها المتخصصة إلى أن مليارين من سكان العالم الذى يضم ٦.٨ مليار إنسان يعيشون تحت خط الفقر وأن عدد المعدمين يتزايد سنوياً بنحو ٢٥ مليون نسمة وأن عدد الجياع فى العالم ٩٢٤ مليون نسمة يشكلون ٢٩٪ من سكان العالم النامى فى الجنوب

ويتوزعون على النحو التالي: ٥٧٪ في آسيا والمحيط الهادى، ٢٧٪ في أفريقيا، ١١٪ في أمريكا اللاتينية والكاريبى و ٧٪ في الشرق الأوسط.

سابعاً: تعاني النساء في دول الجنوب النامى من التهميش والاستبعاد عن مراكز التأثير وصنع القرار في المواقع السياسية والاقتصادية سواء بسبب التقاليد أو القوانين التمييزية أو حرمانها من التعليم. ولم تتغير الحياة بالنسبة للمرأة الريفية في دول الجنوب ويبلغ عددهن ٥٠٠ مليون نسمة إلا تغيير طفيفاً رغم أن الدراسات تشير إلى أنه كلما زادت معرفة النساء بالقراءة والكتابة ارتفع مستوى الدخل ومستوى التغذية ومعدل بقاء الأطفال على قيد الحياة.

ثامناً: يشير تقرير اليونيسيف إلى أن العالم قد انفق عام ٢٠٠٧ تريليون، ٥٠٠ مليار دولار على التسليح منها ٧٠٠ مليار دولار انفقته الدول النامية الفقيرة على التسليح وتشير أحد تقارير برنامج الأمم المتحدة الانمائى إلى أن ١ / ٤ ما تنفقه الدول النامية على التسليح يكفى لتوفير موارد تحقق الأهداف التالية:

١- الرعاية الصحية لجميع الفقراء في دول الجنوب.

٢- تحصين جميع الأطفال الفقراء.

٣- القضاء على سوء التغذية الحاد بين الطبقات الفقيرة والمعدمة.

٤- توفير مياه الشرب النظيفة لسكان الريف.

٥- التعليم الأساسى لجميع الأطفال في سن المدرسة.

٦- تخفيض نسبة الأمية ما لا يقل عن ٦٠٪.

ولكن لوحظ أن قائمة الأولويات لدى حكام الدول النامية تتسم بالعشوائية والتبعية المطلقة لقائمة أولويات الدول الصناعية الكبرى التى تمثل المصدر الرئيسى للسلاح حيث صنّاع السلاح الأباطرة الذين يوجهون الحكومات ويتحكمون في صنع القرار السياسى ولا هم لهم إلا الربح. ومن المعروف أن الولايات المتحدة

تحتل المكانة الأولى في بيع السلاح تليها فرنسا وباقي الدول الخمس ذات العضوية الدائمة في مجلس الأمن - هذا عدا التجارة الدولية للأسلحة الخفيفة التي تمتلئ بها شوارع العالم الجنوبي والتي يقودها تجار السلاح ومافيا المخدرات.

هذا وتشير تقارير (الفاو) المنظمة العالمية للأغذية والزراعة إلى أن إنتاج العالم من الأغذية يزيد بنسبة ١٠٪ على إحتياجات مجموع سكانه وتأسيساً على ذلك فإن قضية الجوع لا تعنى نقص الأغذية فحسب بل تعنى في الأساس سوء توزيعها وقد بدأت هذه القضية تتفجر في المحافل الدولية منذ عقد الثمانينات. وقد توقع المراقبون انفجار حروب الجوع في النصف الأول من القرن الحالى إذا ما استمر هذا الاختلال الفادح بين شمال متخم وجنوب معدوم. وصدقت توقعاتهم.

تاسعاً: تمثل الشعوب الفقيرة ٤٠٪ من سكان العالم ولكنها لا تحصل إلا على ٣٪ من عوائد التجارة العالمية وتمثل الدول الغنية ١٤٪ من سكان العالم ولكنها تحصل على ٧٥٪ من الأرباح. وتنتج البلدان الصناعية نصف الحبوب في العالم ولكنها تضم أقل من ربع سكان العالم ورغم تحسن الوضع الغذائي لجميع السكان في معظم القارات. إلا أن هناك ٧٨ دولة تعاني قلة الغذاء وانخفاض الدخل وهناك ٢٩٪ من الأطفال دون الخامسة يعانون من نقص الوزن و٣٦٪ منهم يعانون تأخر النمو وذلك على مستوى العالم.

عاشراً: تنفق الدول الغنية مليار دولار يومياً في دعم مزارعيها وهو ما يزيد ستة أضعاف على ما تقدمه من مساعدات للدول الفقيرة الأمر الذى يسفر عن وجود فوائض كبيرة في السكر والقطن وغيرها من المنتجات الزراعية مما يؤدى بدوره إلى انخفاض أسعارها في الأسواق العالمية.

الفقر فى مصر

إذا كان الفقر يعد مشكلة عالمية وظاهرة اجتماعية متعددة الأبعاد والتأثيرات ولا يكاد يخلو منها مجتمع رأسالياً أو نامياً مع تفاوت حجمها وطبيعتها والفئات المتضررة منها إلا أنه لا يوجد منظور واحد لتحديد ماهية الفقر بل هناك ثلاث منظورات فى التعامل مع تعريف الفقر فى الأدبيات العلمية. يركز المنظور الأول على التعريف الموضوعى الذى يشير إلى مستوى معين من الدخل والإنفاق ويؤدى عدم التوازن بينهما إلى نشوء الفقر. أما المنظور الثانى فهو يستند إلى رؤية كل فرد إلى مدى إشباع احتياجاته الأساسية. ويركز المنظور الثالث على التوصيف السوسولوجى الذى يحدد الفقراء قياساً إلى الإعانات والمساعدات الاجتماعية التى يحصلون عليها سواء من الدولة أو الأفراد أو المجتمع الأهلى. ولكن فى مصر تطفئ فوضى الإحصاءات فالحقيقة غائبة بين التناقض فى الإحصاءات والاختلاف فى إسناد المعطيات واختلاط التقارير فهناك تقارير التنمية البشرية التابعة لبرنامج الأمم المتحدة الإنمائى عام أو تقارير البنك الدولى والتقارير الاقتصادية الاستراتيجية الذى يصدره الأهرام سنوياً.

وتجمع التقارير الدولية على رصد وإدانة مظاهر التدهور فى الصحة والتعليم والبطالة والعمل فى مصر. إذ تشير منظمة الأغذية والزراعة التابع للأمم المتحدة (فاو) فى تقريرها الصادر عام ٢٠٠٩ إلى معاناة ٦٠٪ من الأسر المصرية من سوء التغذية نتيجة تدنى الأجور ومستوى الدخل إضافة إلى ظاهرة الزواج المبكر للقاصرات من رجال يكبرونهن سنأ هرباً من الفقر. كما أظهرت دراسة أعدتها

وكالة بلومبرج الألمانية للأنباء عام ٢٠٠٩ عن احتلال مصر المركز السابع والخمسين من بين ٦٠ دولة في معدلات التضخم العليا وارتفاع الأسعار واستفحال البطالة وتدهور مستوى الأجور وعدم تناسبها مع حركة الأسعار.

وتتضارب إحصاءات البطالة في مصر ففي حين تؤكد وزارة القوى العاملة أنها لا تتجاوز ٧٪ يفيد تقرير البنك الدولي أنها تجاوزت ٢٢٪ وتشير منظمة العمل العربية أنها لا تقل عن ٢٣٪ مما يشكل تهديداً مباشراً للأمن الاجتماعي والاقتصادى علماً بأن مصر حصلت على المركز ١١١ في الشفافية والنزاهة من ١٨٠ دولة.

مستقبل الفقر في مصر - البدائل والاحتمالات:

لقد طرح عالم الاجتماع المصرى د. سمير نعيم ثلاث سيناريوهات عن مستقبل الفقر في مصر استناداً إلى بعض الدراسات المستقبلية التى أجريت على المستويين العالمى والمحلى ويمكن إجمالها على النحو التالى:

١- السيناريو المرجعى، وهو امتداد للأوضاع الراهنة في مصر ويشير إلى القيام ببعض الإجراءات الحكومية للتخفيف من حدة الفقر تطبيقاً لروشتة البنك الدولى مثل مشروعات الأسر المنتجة والقروض الصغيرة ورفع الحد الأدنى للأجور وخلق فرص عمل جديدة للشباب وتحسين أحوال العشوائيات مع استمرار التمسك بمبدأ السوق الحرة واستمرار الاعتماد على مصادر الدخل القومى الريعية (السياحة - قناة السويس - البترول - تحويلات المصريين في الخارج). ويشير هذا السيناريو إلى استمرار زيادة أعداد الفقراء وسوء أحوالهم مع ارتفاع التضخم وغلاء الأسعار وتدهور مستوى الصحة والتعليم والمواصلات والثقافة علاوة على ازدياده حدة المشكلات الاجتماعية وتدهور منظومة القيم الاجتماعية وتدنى قيم الانتماء للوطن وانتشار أشكال العنف والعنف المضاد مع تفاقم واتساع

الفجوة الطبقة بين الأغنياء والفقراء وتدنى أحوال الطبقة الوسطى وانحدارها إلى طبقة الفقراء وانتشار الأنشطة الطفيلية وتصاعد الاحتقان الطائفي وسيادة الثقافة الاستهلاكية.

وقد تحقق هذا السيناريو بكافة تفاصيله ولا يزال مسيطراً على المشهد العام في المجتمع المصري. بل أن استمرار هذا المشهد قد أفرز التداعيات الموضوعية التي أدت إلى السيناريو الثاني الذي أطلق عليه آلن هاموند خبير التنمية الأمريكي بمعهد دراسات المصادر العالمية بواشنطن سيناريو القلاع الحصينة ويرصد د. سمير نعيم ملامح هذا السيناريو بالتطبيق على الواقع المجتمعي الراهن في مصر فيشير إلى الاستقطاب الجغرافي الناتج عن الاستقطاب الطبقي حيث أصبح للأثرياء في مصر مجتمعات سكنية خاصة تقع في مناطق نائية ومعزولة عن الكتل السكانية الفقيرة ومحاطة بأسوار عالية وحراس عتاه مما يعد ظاهرة اجتماعية غير مسبوقة في تاريخ مصر وإن دل ذلك على شيء فهو يدل على عدم إحساس الأثرياء بالأمان في ظل ازدياد أعداد الفقراء فضلاً عن حرص هؤلاء الأثرياء على التمتع بنمط حياة مماثل لحياة أثرياء الشمال الذين يعيشون في أحياء خاصة معزولة عن سائر مواطنيهم. ولا يمكن التنبؤ بمدى استمرارية هذا السيناريو في ظل الاحتقان الطبقي والطائفي والتدهور الاقتصادي وانحيار الخدمات علاوة على الاستبداد السياسي والأمني الذي يسود المجتمع المصري في الفترة الراهنة.

أما السيناريو الثالث الذي أطلق عليه سمير أمين المفكر المصري العالمي المعروف السوق المقنن ويتحقق هذا السيناريو في حالة إدراك النخبة الحاكمة لمخاطر سيناريو القلاع الحصينة واضطرابها للخضوع للضغط الشعبي من ناحية والاستجابة لمحاولات التغيير السلمى الذى تبناه الطلائع المستنيرة من النخب الثقافية والسياسية في مصر من ناحية أخرى. وهذا السيناريو لن يؤدي إلى القضاء

على الفقر ولكنه يسعى إلى تضيق الفجوة بين الأغنياء والفقراء بالقدر الذى يسمح بانتقال مصر من منظومة العالم الرابع (الدول المفعول بها) وانضمامها إلى دول العالم الثالث الفاعلة فى المنظومة الرأسمالية العالمية.

ويلاحظ أن هذا السيناريو يتسم بقدر كبير من الواقعية المحاصرة بمعطيات وملايسات وتعقيدات الظروف المحلية والعالمية الراهنة إذ لا يتطلع إلى إمكانية إعادة توزيع الدخل القومى أو العالمى بما يكفل القضاء على الفقر وليس مجرد تخفيف حدته. الأمر الذى سوف يغلق الأفق أمام طرح بدائل أو سيناريوهات أخرى تستهدف إحداث تغييرات جذرية فى منظومة العولمة الرأسمالية وتؤدى إلى تحجيم تداعياتها المأساوية على شعوب الجنوب وفى قلبها مصر. ولكن خبرة التاريخ تؤكد أن استمرار الحال من الحال فالانتفاضات والاحتجاجات المناهضة للعولمة الرأسمالية والتى تحتاج العالم شلأً وجنوباً وفى مصر تتفاوت أشكالها وحدتها وتراوح ما بين الإضرابات والاعتصامات والاحتجاجات العمالية والمهنية قد يؤدى تراكمها واستمراريتها إلى بروز أفق مستقبلى يطرح آليات جديدة للتغيير. ولا شك أن هذا السيناريو الغائب وأعنى به سيناريو التغيير الجذرى لابد أن يلقى مقاومة ضاربة من جانب القطاعات المستفيدة من الأوضاع الراهنة والمسنودة بقوى وآليات السوق العولمية.

الإعلام وقضايا الجوع والفقر:

عندما ننتقل إلى دور الإعلام فى مواجهة قضايا الفقر والجوع نلاحظ أن كافة الدراسات التى أجريت للتعرف على مستوى الوعى المجتمعى السائد فى دول الشمال المتقدم صناعياً وتكنولوجياً والمهيمن سياسياً واقتصادياً وثقافياً تؤكد هذه الدراسات على أن وسائل الإعلام المقروء والمرئى والمسموع تلعب دوراً مركزياً فى تشكيل الوعى لدى الجمهور العام سواء فى إطار تزويده بالمعلومات الصحيحة أو

في تشكيل اتجاهاته ومواقفه تجاه قضايا وتحديات العصر وأيضاً في تحديد الأولويات الاقتصادية والاجتماعية والبيئية. ولا شك أن ارتفاع معدلات الأمية وانتشار العوز الاقتصادي والجمود الإجتماعي في أغلب دول الجنوب يؤثر بصورة حاسمة على مستوى أداء وفاعلية وسائل الإعلام في تشكيل الوعي المجتمعي في هذا الجزء من العالم.

وتشير الخبرة العالمية في هذا المجال إلى وجود نموذجين رئيسيين يسيطران على خريطة الاهتمام الإعلامي بقضايا الفقر والجوع في شمال العالم وجنوبه.

يعتمد النموذج الأول على الاهتمام الموسمي المؤقت المرتبط بالآزمات والنكبات المجتمعية والبيئية وغالباً ما يصاحبه نمط التغطية الإعلامية القائم على الإثارة والاكتفاء بالجوانب الصارخة وتحاشي الإشارة إلى الأسباب الكامنة وراء النكبات علاوة على إنتهاء الاهتمام الإعلامي بانتهاء حدة الحدث وعدم الحرص على متابعته أو تفسير أثاره. كذلك تخضع المعالجات الإعلامية لقضايا الفقر والجوع في إطار هذا النموذج لآليات المنافسة التي تفرضها السوق الإعلامية العولمية ويمكن الاستشهاد بالعديد من الأمثلة وأكثرها وضوحاً مشكلات الفقر والمجاعات في أفريقيا. فقد لوحظ أنه عندما إذاعت محطة الـ بي. بي. سي. البريطانية أول تقرير عن المجاعة في أثيوبيا عام ١٩٨٤ علقت صحيفة سن البريطانية التي تتميز باتساع قاعدة قرائها (١١ مليون) بأنها لا تهتم بهذا الموضوع ولا تضعه على قائمة أولوياتها ولكن بعد مرور خمسة أيام نشرت ما نشيت عن (السباق في انقاذ الأطفال ضحايا المجاعة في أثيوبيا) وكذلك كان رد فعل شبكات الإذاعة والتلفزيون البريطاني بالنسبة لهذا الموضوع. وهناك مثال آخر يتمثل في موقف الإعلام والصحافة المصرية من قضايا الفقراء في مصر والذين يمثلون ٤٦٪ من سكان المحافظات الحضرية، ٥١،٤٪ بمحافظات وجه بحري، ٦١٪ بمحافظات وجه قبلي وبلغ نصيبهم من التغطية الإعلامية ٨،٠٪ من مجمل ما تنشره الصحف

من أخبار وتقارير وتحقيقات و ٥, ٠٪ من برامج مسموعة ومرئية إذ تتناول الصحافة المصرية قضايا الفقر في ثنايا القضايا الأخرى مثل الديون والقروض ومشكلات البيئة والتسلح ومساعدات الدول الصناعية والمؤسسات المالية الدولية لانقاذ الدول الفقيرة وتقارير صندوق النقد الدولي والبنك الدولي. ونادراً ما تنشر الصحف المصرية والعربية تحقيقات أو تقارير عن الفقر والفقراء ناهيك عن عدم تخصيص حملات إعلامية عن هذه الظاهرة.

أما النموذج الثانى للاهتمام الإعلامى بقضايا الفقر والجوع فهو يعتمد على النظرة المتكاملة لهذه القضايا سواء فى علاقتها العضوية بالقضايا المجتمعية الأخرى (السياسية والاقتصادية والثقافية) أو فيما تتميز به من سمات الاستمرارية وعدم الانقطاع مما يستلزم معالجات إعلامية تتسم بالشمول ولا تقتصر فقط على الأزمات والمجاعات ويرتبط هذا النموذج بنمط التغطية الإعلامية ذات الطابع النقدي التربوى الذى يرى أن نشر المعلومات الصحيحة عن الفقر والجوع ليس كافياً بل لابد من توعية الجمهور بحقوقه المجتمعية والمسؤوليات المترتبة على هذه الحقوق علاوة على اهتمام وسائل الإعلام بمحاولة اشراك الجمهور فى عملية تقييم الموضوعات التى تنشرها وتذيعها بحيث يسهم الجمهور المتلقى فى تعديلها وتطويرها. ويتميز هذا النمط النقدي فى معالجة قضايا الفقر والجوع بقدرة أصحابه من الصحفيين والإعلاميين على تقديم رؤية نقدية لكشف كافة أشكال التضليل الإعلامى التى يقدمها أنصار النموذج الأول. كذلك يمتلكون القدرة والإمكانات المعرفية على مواجهة إدعاءات الحكومات وأصحاب المصالح التجارية والاستثمارية الذين يحاولون تجميل وجه سياساتهم وممارساتهم الضارة بالاقتصاد الوطنى والتى تستبعد مصالح وحقوق الفقراء.

ويرى أصحاب هذا الاتجاه أن استجابة الجمهور بالإسهام فى حل مشكلات الفقر والإفقار يرتبط بمدى حصول هؤلاء على حقوقهم المعيشية فى العمل

والسكن والتعليم والعلاج والمشاركة السياسية ولا شك أن التحدى الذى يواجه النمط الإعلامى النقدى التربوى يأتى من سيطرة النمط الأول القائم على الإثارة والتغطية الجزئية المشوهة لقضايا الإفقار والجوع حيث تقنع وسائل الإعلام فى أغلب الأحيان كفريسة فى أيدي أصحاب المصالح الذين يستخدمونها للترويج لسياساتهم ومصالحهم فى إطار تنافسى بغرض يقوم على حجب المعلومات عن الجمهور مما يتعارض مع الموائيق الدولية التى تنص على حق كل مواطن فى المعرفة والإعلام الصحيح المتكامل. وهناك مجموعة من السلبيات تتمحور حول الرؤية الخاطئة لمفهوم الفقر والإفقار والجوع لدى الإعلاميين والتى تتمثل فى أحادية المعالجة الإعلامية أى اقتصارها على رؤية المسؤولين المحليين والدوليين وتهميش رؤية الفقراء. كما أنها تقتصر على التغطية الخبرية وغياب التحقيقات الصحفية الموثقة بالمعلومات ويعزى ذلك إلى افتقار معظم الإعلاميين والصحفيين إلى الثقافة المجتمعية المتكاملة علاوة على صعوبة وصولهم الى المصادر المعرفية الدائمة والمتجددة عن قضايا التنمية البشرية. ويضاف إلى ذلك الدور السلبى الذى يقوم به أصحاب المصالح التجارية فى شراء سكوت الصحفيين والإعلاميين عن طريق الإعلانات وغيرها من الأساليب المقنعة.

المراجع

- اعتمدت الورقة البحثية على عدة مراجع محلية ودولية توجز أبرزها على النحو التالي:-
- ١- تقارير التنمية البشرية - برنامج الأمم المتحدة الانمائي ٢٠٠٧، ٢٠٠٩.
 - ٢- البنك الدولي، أصوات الفقراء صيحة للتغيير، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة ٢٠٠٠.
 - ٣- محمد أبو مندور: الإفقار في بر مصر - كتاب الأهالي رقم ٦٣ نوفمبر ١٩٩٨.
 - ٤- عزت حجازي: الفقر في مصر - المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية - القاهرة ١٩٩٦.
 - ٥- برنامج الأمم المتحدة الانمائي: مكافحة وإزالة الفقر - العناصر الرئيسية لإستراتيجية القضاء على الفقر في البلدان العربية. دمشق، ١٩٩٨.
 - ٦- برنامج الأمم المتحدة الانمائي: مناهضة وإزالة الفقر - تقرير اجتماعات الخبراء - دمشق - فبراير ١٩٩٦.
 - ٧- سمير نعيم: الفقر في بر مصر - قراءة مستقبلية - الهيئة القبطية الإنجيلية، مؤتمر الفقر في مصر ٢٧ - ٢٩ سبتمبر - الإسكندرية، ٢٠٠٩.
 - ٨- سمير أمين: الفجوة بين الفقراء والأغنياء (الإشكاليات والآليات والمستقبل) - مركز البحوث العربية والإفريقية - القاهرة ٢٠٠٥.
 - ٩- عثمان جلال: للجوع معنى آخر - مجلة وجهات نظر، العدد ١٣٣ - فبراير ٢٠١٠.
 - ١٠- هالة عامر: معدلات الفقر في مصر ترتفع إلى ٢٣٪ ونصف الأسري يعاني من سوء التغذية - الحياة اللندنية، ٨ أبريل ٢٠١٠.

(١١)

الجامعات المصرية بين التحديات والقصور الذاتي

من الثابت تاريخياً أن الجامعة المصرية ظلت منذ نشأتها وحتى أوائل الستينات حكراً على أبناء الطبقات العليا في المجتمع المصرى باستثناء بعض الطلاب المتفوقين الذين ينتمون إلى الطبقات الشعبية. ومع تحقيق المجانية الكاملة للتعليم الجامعى عام ١٩٦٢ استطاعت جميع الشرائح الاجتماعية الحصول على فرص متكافئة من التعليم تطبيقاً للتوجهات الناصرية التى اعتمدت على التعليم كوسيلة أساسية لإذابة الفوارق الاجتماعية بين الطبقات ولتحقيق الحراك الاجتماعى فيما بينها.

وإذا كانت هذه السياسة تمثل الوجه المضى لثورة يوليو في مجال التعليم عموماً والتعليم الجامعى على وجه الخصوص إلا أنها انطوت على جوانب أخرى غير مضيئة تمثلت في سيطرة البيروقراطية والهيمنة الأمنية المباشرة وغير المباشرة على أجواء التعليم الجامعى وبرامجه خصوصاً بعد دخول الأمن إلى حرم الجامعات في منتصف الخمسينات وتعيين وحدات الاتحاد الاشتراكى بالكليات وتأسيس القطاع الجامعى للاتحاد الاشتراكى وبهذه الإجراءات وغيرها نجحت ثورة يوليو في تعبئة الطلاب وأساتذة الجامعات لصالح القيادة السياسية للثورة خصوصاً بعد أن تلقت الجامعات أول درس في الانصياع في إطار ما عرف بحركة التطهير حيث تم اعتقال وإبعاد العديد من الأساتذة والطلاب الذين طالبوا بعودة الديموقراطية ورجوع الجيش إلى ثكناته عام ١٩٥٤. كما قامت السلطة السياسية باستقطاب بعض أساتذة الجامعات للدفاع عن النظام الحاكم.

هذا وقد تعددت القوانين التي أصدرتها السلطة السياسية من أجل إعادة صياغة المنظومة الجامعية وفي الوقت نفسه إحكام السيطرة عليها بالقانون والإجراءات التنظيمية والبيروقراطية ومنذ تلك اللحظة بدأ صراع الأدوار في الجامعة بين موقفها كمؤسسة حكومية وبين رسالتها في إنتاج المعرفة العلمية وتطوير المجتمع حيث حوصرت التوجهات النقدية وأصحاب الرؤى المخالفة للقيادة السياسية داخل الجامعات وأصبح الهدف الأساسي للسلطة السياسية ضمان الاستقرار الجامعي. ومنذ ذلك التاريخ أصبح اشتغال الطلاب الجامعيين بالسياسة عملاً غير مشروع إلا في الحدود التي يرسمها النظام الحاكم والتي تعنى الولاء المطلق لهذا النظام وتوجهاته وسياساته وبانتهاء الفترة الناصرية ومجيئ السادات إلى السلطة عام ١٩٧٠ برز على الساحة المصرية نظام اقتصادي - اجتماعي مغاير جذرياً للتوجهات الاشتراكية التي تميزت بها الحقبة الناصرية. إذ بدأت حركة التحول من الاقتصاد الموجه إلى الانفتاح والاقتصاد الحر حيث استعاد كبار الملاك ورجال الأعمال والمال نفوذهم الاقتصادي وهيمتهم على صنع القرارات الوطنية.

وقد تزامن مع هذه التطورات بروز الحقبة النفطية بعد ارتفاع أسعار النفط عقب حرب أكتوبر ١٩٧٣ وكان لذلك انعكاساته على مجمل الأوضاع المجتمعية ولعل أبرز نتائجها تدفق الهجرة المصرية إلى بلاد النفط في إطار تشجيع الدولة. وإذا كانت الجامعات المصرية قد شهدت في تلك الفترة نمواً ملحوظاً في أعداد الطلاب فضلاً عن التوسع في إنشاء الجامعات الإقليمية في طنطا والمنصورة والزقازيق وحلوان والمنيا والمنوفية خلال الفترة من ١٩٧٢-١٩٧٩ إلا أن القرار السياسي الخاص بالتوسع في هذه الجامعات الإقليمية كان له آثاره السلبية التي تمثلت في التعجل في إصدار قرارات الإنشاء دون الاستعداد الكافي سواء بإقامة المباني اللائقة أو بتوفير أعضاء هيئات التدريس ومتطلبات البحث العلمي. مما جعل هذه الجامعات الإقليمية تعتمد كلياً في البداية على الانتدابات من الجامعات الأقدم في

القاهرة والاسكندرية وعين شمس. ولا تزال الجامعات الإقليمية تعاني من هذه القصورات البنيوية حتى اليوم فضلاً عن غياب دورها في تنمية المعرفة العلمية بسبب اقتباسها واعتمادها على المقررات الدراسية في الجامعات الأم.

أما حقبة مبارك (١٩٨١) فقد شهدت تراجعاً متواصلاً في دعم الدولة للخدمة التعليمية. وقد تجسد ذلك بالنسبة للتعليم الجامعي في إعادة المصروفات في مستوى الدراسات العليا (دبلوم - ماجستير ودكتوراه) وذلك خلافاً للنص الدستوري الذي يؤكد مجانية التعليم في مختلف مراحل (المادة ٢٠ من دستور ١٩٧١) علاوة على الصيغ التعليمية التي ابتكرها المجلس الأعلى للجامعات والتي يتحمل فيها الطالب تكلفة تعليمه وتمثل فيها عرف بنظام الانتساب الموجه والتعليم المفتوح والانتساب العام وهي صيغ تعكس معايير الاقتصاد الحر وتستند إلى نصائح وتعليمات البنك الدولي وصندوق النقد الدولي التي تزعم أن العائد الاقتصادي للاستثمار في التعليم الأساسي أعلى من التعليم الثانوي وهذا أعلى من التعليم الجامعي وبالتالي فإن عائد التعليم العالي قد يكون عائداً سلبياً.

وفي إطار هذه التطورات التي بدأت منذ الانفتاح ظهرت توجهات التوسع في تأسيس المدارس الخاصة ومدارس اللغات الخاصة والتي توجت عام ١٩٩٢ بإصدار القانون ١٠١ لعام ١٩٩٢ بإنشاء الجامعات الخاصة وتم تنفيذ هذا القانون عام ١٩٩٦ بإنشاء أربع جامعات خاصة هي: جامعة ٦ أكتوبر وجامعة مصر الدولية. للعلوم الحديثة والآداب وجامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا وجامعة مصر الدولية. وتم وضع لائحة تنفيذية لهذه الجامعات ويلاحظ أن معظم هذه الجامعات تفتقر إلى هياكل تعليمية مستقلة بل لا تزال معتمدة على إعاره وانتداب أعضاء هيئات التدريس من الجامعات الحكومية. ويضاف إلى الجامعات الخاصة ظهور الجامعات الأجنبية البريطانية والفرنسية والألمانية والكندية والتي يعتمد التعليم فيها على لغة

دولها. وإذا كان المبرر الرسمي المعلن لتشجيع التوسع في التعليم الجامعي الخاص والأجنبي هو التخفيف من الضغوط على الجامعات الحكومية واستيعاب الطلب المتزايد على التعليم الجامعي إلا أن ذلك لم يتحقق حتى الآن فلا يزال أعداد الملتحقين بالجامعات الخاصة والأجنبية محدوداً بسبب رسومها الباهظة واستخدامها للغات الأجنبية في التدريس. ويبدو أن إمكانياتها الحالية لا تسمح باستيعاب أعداد أكبر للالتحاق بها. ولا شك أن هذا التباين في مسارات التعليم الجامعي بين الحكومي والخاص والأجنبي قد أسفر عن زيادة الفجوة الطبقية بين الشرائح الاجتماعية المختلفة وأدى إلى تآكل تكافؤ الفرص بين الخريجين حيث لم يثبت أن الجامعات الخاصة والأجنبية تقدم تعليماً أفضل لطلابها بل من المحتمل أنها تتيح لهم فرصاً أفضل للعمل.

التحديات الراهنة:

في ضوء استعراضنا للتأثيرات الإيجابية والسلبية لممارسات القيادة السياسية لثورة يوليو منذ عبد الناصر ومروراً بالسادات ووصولاً لفترة مبارك تبرز أمامنا مجموعة من التحديات التي تواجه الجامعات المصرية نوجزها على النحو التالي:

أولاً: استقلال الجامعات

رغم أن الخطاب الرسمي قد دأب منذ السبعينيات على تأكيد استقلال الجامعات مالياً وإدارياً بمعنى حق كل جامعة في أن تضع لنفسها ما تراه من لوائح، وأكاديمياً بمعنى حق كل جامعة في أن تنشئ من الكليات والتخصصات ما تشاء في إطار احتياجات المجتمع إلا أن الجامعات لا تزال بعيدة عن الاستقلال الحقيقي فالدولة بحكم إنفاقها على الجامعات تتولى تعيين القيادات الجامعية رؤساء الجامعات ونوابهم وأمناء الجامعات. ويتولى رؤساء الجامعات تعيين العمداء والوكلاء ورؤساء الأقسام بشرط موافقة السلطات الأمنية.

ويشار في هذا الصدد إلى أن الجامعات المصرية ظلت تحتفظ باستقلالها الذاتي حتى أزمة مارس ١٩٥٤ حيث أنهت حكومة الثورة استقلال الجامعة بادئة بحملة التطهير ثم بتغيير قانون الجامعات في ١٩٥٨ ونسفت بذلك كل جوانب الاستقلال الجامعي. منذ ذلك الحين أصبحت الجامعات المصرية تابعة للسيطرة السياسية وملحقة بها وقد كان لكل جامعة قبل ثورة يوليو قانون مستقل بها ينظم شئونها الإدارية والأكاديمية كما توافرت لها قوانين مستقلة أخرى تنظم شروط توظيف أعضاء هيئات التدريس وما يرتبط بها من قضايا وكان يقوم بالعملية التنسيقية بين هذه الجامعات (القاهرة - عين شمس - الاسكندرية) المجلس الاستشاري للجامعات الذي أنشئ بالقانون رقم ٤٩٦ لعام ١٩٥٠ بيد أن استقلال الجامعات أخذ يتناقص مع القوانين اللاحقة التي أحكمت رباط المركزية بدعوى التنسيق. ففي عام ١٩٥٤ صدر قانون موحد رقم ٥٠٨ لإعادة تنظيم الجامعات المصرية وتبع ذلك حل المجلس الاستشاري للجامعات وإنشاء المجلس الأعلى للجامعات وفي عام ١٩٥٨ صدر قانون رقم ١٨٤ بشأن تنظيم الجامعات ونص على أن وزير التربية والتعليم هو الرئيس الأعلى للجامعات بحكم منصبه وفي عام ١٩٦١ أنشئت وزارة التعليم العالي وبعدها بعامين عُدل قانون تنظيم الجامعات بحيث أصبح وزير التعليم العالي هو الرئيس الأعلى للجامعات ومنذ ذلك الوقت برزت إشكالية استقلال الجامعة ودورها في تطوير المجتمع من ناحية وبين كونها أداة لضمان السيطرة الفكرية والسياسية على الجامعة أساتذة وطلاباً وتوظيفها لخدمة أهداف النظام الحاكم. وقد تفاقمت هذه الإشكالية منذ السبعينيات من القرن العشرين بتزايد سلطة المؤسسة الأمنية داخل الجامعات.

وبخلاصة القول أن الاستقلال الفعلي للجامعات المصرية لم يتحقق بعد رغم أهميته القصوى.

ويقودنا الوضع الراهن لقضية استقلال الجامعات إلى طرح بعض التساؤلات التي تدور حول كيفية تحقيق التوازن بين مبدأ الإدارة المستقلة للجامعة مع اعتمادها على التمويل الحكومي الذي يصل إلى ٧٥٪ من مجمل الميزانية، وما هي الحقوق التي تترتب على هذا التمويل؟

وهل يحق لوزير التعليم العالي أن يصدر توجيهاته للجامعات حتى بشأن قرارات مجالسها؟ وهل يكفي أن نستبعد التدخل الحكومي والأمني كي تصبح الجامعات مستقلة تماماً؟

وهنا قد يحق لنا أن نستلهم الخبرة التاريخية الخاصة بالتعليم الجامعي في مصر بالرجوع إلى أول قانون لتنظيم الجامعة المصرية الذي صدر عام ١٩٢٧ وعدل في عامي ١٩٣٣ و ١٩٣٥ وينص على أن الجامعة (تدير أموالها بنفسها) ويقوم على إدارتها مدير الجامعة (يدبر الجامعة ويمثلها أمام الجهات الأخرى) ومجلس إدارة الجامعة (يختص بالجوانب المالية والإنشائية) ومجلس الجامعة (يختص بالجوانب العلمية والإدارية). ويلاحظ أن ذلك القانون قد راعى التوازن في المسؤولية بين المعنيين من قبل السلطة السياسية والمنتخبين فبينما يعين مدير الجامعة بمرسوم فإن وكيل الجامعة كان ينتخب من مجلسها الذي يتكون في أغلبية من أعضاء منتخبين من مجالس الكليات.

ثانياً: الحريات الأكاديمية في الجامعات:

يشير تاريخ الجامعة المصرية منذ بدايتها الحكومية عام ١٩٢٥ إلى المعارك العديدة التي خاضتها من أجل الحفاظ على استقلالها الذي يحمل في مضمونه الأساسى معانى ومقاصد الحرية الأكاديمية باعتبارها القيمة النهائية لتكامل ولاستمرارية المنظومة العامة للحريات. ولذلك حرص المشرع المصرى على تحديد اختصاص الجامعات تحديداً جامعاً إذ قررت المادة الأولى من قانون تنظيم الجامعات رقم ٤٩ لعام ١٩٧٢ أنها:

(تختص بكل ما يتعلق بالتعليم الجامعي من الإسهام في رقى الفكر وتقدم العلم وتنمية القيم الإنسانية وتزويد البلاد بالمختصين والفنيين والخبراء وتوثيق الروابط الثقافية والعلمية مع الجامعات الأخرى والهيئات العلمية العربية والأجنبية).

ولاشك أن المشرع كان يؤكد من خلال هذه الصيغة على الرسالة الفكرية والعلمية السامية للجامعات وإنها لا تستطيع القيام بدورها على الوجه الأكمل إذا حاصرتها قيود التبعية لسلطة دينية أو سياسية أو تنفيذية من خارجها. هذا وقد ظهرت بدايات الدعوة للحرية الأكاديمية في القرن ١٢ في أوروبا لمقاومة سلطات الحكومة والكنيسة واشتدت الدعوة في أواخر القرن ١٨ وكانت البداية في الجامعات الألمانية ثم انتشرت الدعوة في الجامعات الأمريكية في نهاية القرن التاسع عشر وما لبثت أن أصبحت جزءاً من أفكار فلسفة الحرية وانتشرت بصورة واسعة في الجامعات الأوروبية والأمريكية.

ويجمع العديد من الباحثين والمؤرخين على أن المجتمع المصرى سياسياً ودينياً واجتماعياً كان في حاجة ملحة لوجود الجامعة تطلعاً للنهوض والرقى الفكرى والاستنارة وسعياً للتححرر من سطوة الاحتلال البريطانى ولكن حوصرت هذه الجامعة منذ ميلادها الحكومى عام ١٩٢٥ بالضغط السياسى والدينى التى حالت دون قيامها بالدور التنويرى والنهضوى المفترض. إذ قوبلت كل محاولة للاقتراب من الحدود الفكرية الحداثية بمتتهى الحزم والقسوة وابرز مثال على ذلك أزمة طه حسين وكتابه (فى الشعر الجاهلى) والشيخ أمين الخولى ومحمد خلف الله أحمد ثم أزمة حامد نصر أبو زيد. فقد جسدت هذه الأزمات الفكرية المتلاحقة غياب الحرية الأكاديمية داخل الجامعة المصرية. كما تجلّى من قبل البعد السياسى لهذه الأزمة فى إصرار السلطة السياسية على نقل طه حسين من عمادة كلية الآداب إلى وزارة

المعارف بسبب رفضه منح درجة الدكتوراه الفخرية لرئيس الوزراء آنذاك الأمر الذى ترتب عليه استقالة لطفى السيد من رئاسة الجامعة فى ٩ مارس ١٩٣٢ احتجاجاً على هذا التدخل الجائر من جانب السلطة السياسية فى شئون الجامعة والمساس باستقلالها.

هذا وقد شهدت الجامعات المصرية فى نهاية حقبة السبعينيات من القرن العشرين وتوأكبا مع سيطرة ثقافة النفط وسعى السلطة السياسية لاستقطاب التيارات الإسلامية وتصفية التيارات اليسارية شهدت هذه الحقبة ظهور الاتجاهات الدينية المتطرفة التى اختزلت جميع القضايا الحيوية للوطن فى بعدين هما الحلال والحرام وقد كان لهذه التيارات انعكاسات سلبية على المناخ الفكرى والأكاديمى داخل الجامعات. وفى نهاية الثمانينات والتسعينيات انفجرت موجات التطرف داخل الجامعات واشتدت رقابة الدولة على الجامعات وأصبح تعيين أعضاء هيئة التدريس ومعاونيهم مرهوناً بموافقة الأمن. كما ازداد تدخل الأمن فى انتخابات أندية أعضاء هيئات التدريس وتعيين رؤساء الجامعات للعمداء بعد أن كان اختيارهم يتم من خلال الانتخابات. ويتجلى التضيق على الحريات الجامعية فى ضرورة الحصول على موافقة الأمن على أسماء المحاضرين الذين يستضيفهم الأساتذة من خارج الجامعة لإجراء لقاءات حوارية مع الطلاب كذلك فى إلغاء التكليف الصادر لبعض المعيدى بسبب اتجاهاتهم وانتماءاتهم الفكرية والسياسية. فضلاً عن التدخل السافر للأمن فى الانتخابات الطلابية.

ثالثاً: مجانية التعليم الجامعى:

يعود لمجانية التعليم العام والجامعى فضل لا ينكر فى الطفرة التعليمية الهائلة التى شهدتها المجتمع المصرى خلال الحقب الثلاثة لثورة يوليو. ولولا المجانية لما تعلمت الأغلبية الساحقة من أبناء الريف والطبقات الفقيرة. وإذا كانت مجانية

التعليم الجامعى تعود إلى الحقبة الناصرية (عام ١٩٦١-١٩٦٢) غير أن هناك بعض الظواهر السلبية التى طرأت على المجانية المنصوص عليها دستورياً خلال حقبتى السادات ومبارك ومن أبرز هذه الظواهر الدروس الخصوصية التى انتشرت بصورة وبائية فى مختلف مراحل التعليم الرسمى والخاص. ورغم وعود الحكومات المتعاقبة بالقضاء على هذه الظاهرة الخطيرة إلا أن هذه الوعود لم تتحقق بل تأسست ظاهرة الدروس الخصوصية وأصبحت تشكل شبكات مصالح ذات نفوذ قوى فى المجتمع المصرى. وقد ساعد على استمرار وتفشى هذه الظاهرة تدنى مرتبات المعلمين وأساتذة الجامعات علاوة على إعتقاد العملية التعليمية على أسلوب التلقين والحفظ فضلاً عن ضالة الميزانيات الحكومية المخصصة للتعليم الجامعى. وتتعلق الظاهرة الثانية بنظم التعليم بمصروفات التى استحدثها المجلس الأعلى للجامعات مثل التعليم المفتوح وإنشاء شعب التدريس باللغات الأجنبية ونظام الانتساب الموجه وجميعها تمثل محاولات الدولة للالتفاف حول مجانية التعليم وتصفيته دون ضجيج وبصورة تدريجية الأمر الذى أسفر عن ظهور فجوة طبقية بين الطلاب الذين يتلقون التعليم الجامعى التقليدى وبين زملائهم طلاب الشعب الأجنبية وكذلك ظهرت بوادر التمايز الاقتصادى بين دخول الأساتذة ودخول زملائهم المشاركين فى التعليم المفتوح وبرامج التدريس باللغات الأجنبية.

ويضاف إلى ما سبق ظاهرة ارتفاع أسعار الكتب الجامعية بمعدلات غير مسبقة - ولجوء بعض الأساتذة إلى سياسة إجبار الطلاب على شراء مؤلفاتهم رغم ارتفاع أسعارها. كذلك تضاعفت مصروفات الدراسات العليا عدة مرات.

كل هذه الظواهر السلبية أدت إلى تفرغ مجانية التعليم من مضمونها وتحول التعليم الجامعى من خدمة تقدم مجاناً إلى طلاب العلم المؤهلين والراغبين إلى سلعة لا يستطيع الإقدام على شرائها إلا القادرين مالياً. وهنا يجدر الإشارة إلى الدور الفعال للمؤسسات المالية الدولية منذ بداية التسعينيات فى رسم وصياغة الخيارات

السياسية للتعليم الجامعي والتي استهدفت تخفيض أعداد المقبولين في التعليم العالي وإلغاء المجانية وضرورة تخلي الدولة تماماً عن دورها في تمويل التعليم العالي وإن تخصص ما تنفقه على التعليم العالي لصالح تدعيم التعليم الأساسي والتوسع فيه بادعاء تحقيق المساواة ومراعاة وصول الدعم لمستحقه. وقد أصدر البنك الدولي عدة تقارير حول ضرورة مراقبة الحكومة للأداء التعليمي ككل وضرورة إخضاع السياسة التعليمية بمستوياتها المختلفة إلى اليد السحرية للسوق أو اللامركزية. وطرح البنك الدولي أيضاً ضرورة أن يتحمل الطالب الرسوم الدراسية بالكامل في مرحلة التعليم الجامعي. كما استبعد أي دعم حكومي لنفقات الطلاب غير الدراسية مثل السكن والتغذية والصحة.

رابعاً: أزمة التعليم والبحث العلمي

تشير الدراسات القليلة التي تناولت قضايا البحث العلمي في مصر إلى تفاقم أزمة البحث العلمي في الجامعات بسبب ضالة الميزانية المخصصة للبحوث فضلاً عن أن معظم رسائل الماجستير والدكتوراه وبحوث ترقية الأساتذة غير موجهة لخدمة الأهداف التنموية في المجتمع. إذ أن أغلب الأنشطة البحثية تستهدف تحقيق منافع فردية مثل الحصول على درجة أكاديمية أو الترقية إلى وظيفة علمية أعلى. كما أن معظم نواب رؤساء الجامعات للبحوث والدراسات العليا يركزون على الدراسات العليا ولا يمنحون البحوث الاهتمام المفترض ولا يسعون لتشجيع البحوث الجماعية بين الأقسام والكليات المتناظرة مستندين إلى الحجة التقليدية التي تتمثل في ضالة الميزانيات.

ورغم ضالة الميزانيات الجامعية المخصصة للبحث العلمي إلا أن الجزء الأكبر منها يذهب للبحوث التطبيقية في كليات الطب والهندسة والزراعة ولا تنال البحوث الأساسية والبحوث الاجتماعية والإنسانية سوى الفتات وإذا حدث ذلك بالفعل فإنه يندر أن تتم المتابعة والتقويم بالكيفية الواجبة.

ومما يجدر ذكره أن البحث العلمي في مصر يعتمد على التمويل الحكومي حيث تتحمل الدولة ٨٥٪ من هذا التمويل. وكان من المتوقع مع تبنى سياسة الاقتصاد الحر وخصخصة المشروعات الوطنية أن يتزايد إسهام القطاع الخاص ودور رجال الأعمال والمستثمرين في تمويل مشروعات البحث العلمي خصوصاً في قطاع التعليم العالي والجامعي ولكن ذلك لم يحدث. علماً بأن نصيب قطاع البحث العلمي في الجامعات لا يزيد عن ١٧٪ من مجمل الإنفاق الحكومي على البحث العلمي في مختلف قطاعات الخدمات والإنتاج.

ولذلك يجمع العديد من الباحثين المهتمين بالتعليم الجامعي على إرجاع تدهور مستوى خريجي الجامعات المصرية إلى الخلل الواضح في العملية التعليمية.

فالنجاح في الجامعة أصبح شبه أوتوماتيكي، تضخمت قواعد الرفع والرأفة والنقل للفرقة الأعلى لطلاب راسين في بعض المقررات، حتى أصبح رفع النتيجة جزءاً من حقوق الطلاب. في المقابل تم إدخال نظام الفصلين الدراسيين مع الاحتفاظ بتنظيم معقد ومكلف للامتحانات يؤدي إلى اختصار أسابيع الدراسة لحوالي عشرة أسابيع في كل فصل دراسي، مما لا يتيح للطلاب الوقت لهضم المقررات والعمل الجاد لينجح بمجهوده هو. كل هذه الإجراءات جاءت "بقرارات سياسية" أو نتيجة "لقرارات سياسية".

ورؤساء الجامعات (المعينون)، رغم كونهم أساتذة جامعيين، إلا أنهم يتبعون التعليمات السياسية التي تصدر لهم على حساب منطق العلم والتخصص.

أيضاً يستحيل في النظام الحالي تطوير أو تعديل المناهج بشكل مستمر، إذ يتطلب أي تعديل في اللوائح الداخلية للدراسة في الكليات أن يوافق عليها المجلس الأعلى للجامعات ووزير التعليم العالي.

خامساً: الحركة الطلابية

تتميز الحركة الطلابية في الجامعات المصرية بتاريخ وطني مرموق حيث شارك منذ ميلاد الجامعة الأهلية ١٩٠٨ جموع الطلاب الجامعيين في الحركات الوطنية المطالبة بالاستقلال والسيادة الوطنية والتغيير الاجتماعي. فقد كان الطلاب في مقدمة الطلائع الثورية في ثورة ١٩١٩ وانتفاضة الطلبة عام ١٩٣٥ والانتفاضة الكبرى للطلبة والعمال عام ١٩٤٦ كما تصدروا صفوف الفدائيين في الكفاح المسلح ضد الاحتلال البريطاني في قناة السويس عام ١٩٥١ وسجلوا مسيرة ذائخة بالبطولات والشهداء. وهناك مفارقة تستحق التأمل تتمثل في التباين الملحوظ بين موقف القيادة السياسية الناصرية التي وافقت عام ١٩٦٨ على إصدار اللائحة الطلابية التي تتيح للطلاب حق العمل السياسي وذلك عقب المظاهرات التي قام بها طلاب الجامعات احتجاجاً على الأحكام الصادرة بشأن من تسببوا في نكسة يونيو ١٩٦٧ فيما انعكس الوضع عقب العبور العظيم بإعلان سياسة الانفتاح الاقتصادي ثم مشاركة الطلاب في مظاهرات يناير ١٩٧٧ احتجاجاً على غلاء الأسعار في الانتفاضة الشعبية التي أطلق عليها السادات (انتفاضة الحرامية) وكان عقابهم صدور اللائحة الطلابية الحالية عام ١٩٧٩ والتي استهدفت حرمان الطلاب وتجريدتهم من حقوقهم في العمل السياسي ووضعهم تحت وصاية الأساتذة ورقابة الأمن وأصبح النشاط السياسي والثقافي الجاد محظوراً في الجامعات منذ ذلك الوقت. وتركت الساحات الجامعية لنشاط الجماعات الإسلامية وكانت المحصلة ظهور أجيال من الشباب الجامعي التائه المفتقر للوعي والانتباه والذي يتطلع إلى فرصة الهجرة من الوطن بأي وسيلة. ولا شك أن التدخلات السياسية والأمنية التي تستهدف تعقيم النشاط الطلابي ومحاصرة حرية التعبير داخل الجامعات قد أدت إلى انحسار النشاط الطلابي وعزوف الطلاب عن المشاركة في الانتخابات التي تحسم في الغالب لصالح الطلاب المتتمين للحزب الحاكم ومن ثم

أصبحت الجامعات بلا روح وطلابها يدورون طوال يومهم وراء جمع الملخصات ونماذج الامتحان بحثاً عن نجاح دون فكر.

جماعة ٩ مارس:

لمواجهة التحديات والاشكاليات التي يعاني منها التعليم الجامعي بادرت مجموعة من أساتذة الجامعات في خريف ٢٠٠٣ لتأسيس مجموعة العمل من أجل استقلال الجامعات - ٩ مارس وهي مجموعة غير رسمية وليس لها إدارة أو رئاسة وإنما يتفق أفرادها على أسلوب العمل فيما بينهم ويدعى للمشاركة فيها أعضاء هيئات التدريس المهتمين باستقلال الجامعات بغض النظر عن توجهاتهم السياسية. وتعمل هذه المجموعة على تدارس كافة القضايا والمشكلات المتعلقة باستقلال الجامعات في اجتماعات غير دورية تعقد داخل الجامعات ونواديها كما تتخذ الإجراءات اللازمة للدفاع عن الأعراف والقيم الجامعية والحقوق المهنية والأكاديمية للأساتذة والطلاب والتنديد بأي مساس بها وتنظم المجموعة منذ عام ٢٠٠٤ احتفالاً سنوياً بيوم استقلال الجامعة يوم ٩ مارس من كل عام وذلك في ذكرى استقالة أحمد لطفى السيد من رئاسة الجامعة المصرية في ٩ مارس ١٩٣٢ احتجاجاً على قرار الحكومة بنقل طه حسين إلى وزارة المعارف دون موافقة الجامعة. وتصدر المجموعة نشرات غير دورية عن انتهاكات الحريات الأكاديمية والتدخلات الأمنية في الجامعة كما تنظم وقفات احتجاجية ومسيرات سلمية للمطالبة بضمانات استقلال الجامعات وتأكيد الحقوق المهنية والأكاديمية للأساتذة وحقوق الحركة الطلابية.

(١٢) الصورة الإعلامية للمرأة العربية في عصر العولمة التحديات والتحديات

يدور هذا الموضوع حول ثلاثة محاور نوجزهم على النحو التالي:

المحور الأول: يتناول التغيرات التي طرحتها الثورة العلمية والتكنولوجية في مجال الاتصال والمعلومات وتأثيرها على الواقع الاجتماعي والثقافي في المجتمعات العربية وفي قلبها الأسرة والمرأة العربية.

المحور الثاني: يركز على مساحات التجاهل والاهتمام الذي تحظى به صورة المرأة العربية في الإعلام وتأثير ذلك على منظومة القيم الأسرية والمجتمعية.

المحور الثالث: إبداع المرأة العربية في مجال الصحافة والإعلام

تفصيلاً لذلك:

المحور الأول:

يواجه العالم العربي، في نهاية العقد الأول من القرن الحادي والعشرين مجموعة من التحديات السياسية والاجتماعية والثقافية والتكنولوجية في ظل مناخ إقليمي ودولي يشهد تحولات متسارعة ونزوعاً إلى مزيد من الهيمنة الغربية الاقتصادية والسياسية التي انعكست آثارها على الأسرة والمرأة العربية بشكل خاص ولعل من أبرز التحديات التي تواجه العالم العربي في السنوات الأخيرة ذلك التطبيق القاصر في مفهوم التنمية البشرية وتجاهل المغزى الحقيقي لهذا المفهوم وما

ينص عليه من توسيع دائرة الخيارات أمام كافة أفراد المجتمع من الرجال والنساء بما ينمى طاقات الشباب من الجنسين للإسهام في خلق الظروف الملائمة لتحقيق العدالة والمساواة وفق منهج تنموى متكامل وفي مناخ ديمقراطى حقيقى وفي هذا السياق تبرز الحقيقة التى تشير إلى غياب الحوار في كافة التشكيلات والمؤسسات الاجتماعية والثقافية والسياسية في الدول العربية مما يقود إلى العنف بمختلف صورة المفضية إلى التوتر والصراع الذى يقوض تماسك الأسرة العربية وتتل المرأة العربية النصيب الأكبر من تداعيات العنف وآثاره. كذلك تشهد المنطقة العربية منذ نهاية السبعينيات تطبيقات جائرة لسياسات التكيف الاقتصادى الهيكلى في كثير من البلدان العربية بما يتضمنه ذلك من تقليص لدور القطاع العام وتخفيض للإنفاق الحكومى على الخدمات مضافاً إليها ما شهده عقد الثمانينيات من تفاقم في المديونية وتباطؤ في النمو الاقتصادى، ويضاف إلى ذلك اتساع الفجوة التكنولوجية القائمة بين العالم العربى والدول الصناعية المتقدمة تكنولوجياً مما أدى في ظل غياب التعاون العربى إلى آثار سلبية على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المجتمعات العربية عامة وعلى الأسرة العربية ووظائفها وأدوارها على وجه الخصوص. وتتمثل هذه التغيرات في بروز صراع الأدوار بين أعضاء الأسرة العربية ذكوراً وإناثاً وتفكك العلاقات الأسرية وظهور أشكال من العنف المادى والنفسى بين أعضاء الأسرة وانتشار ظاهرة الطلاق بكل مرتباتها الحادة على تنشئة الأجيال واستقرارهم الاجتماعى.

وقد أسفر كل ذلك عن تخلخل منظومة القيم الأسرية حيث توارت القيم الأخلاقية وبرزت أهمية الاعتبار المادية على حساب القيم العاطفية والنفسية والتضامنية ورجحت كفة قيم التطلع المادى والفردية والمنفعة الشخصية لدى الأجيال الجديدة من الشباب. واكتسحت منظومة القيم الاستهلاكية المصاحبة

للعولمة في طريقها العديد من الجوانب الإيجابية التى تميز بها التراث العربى الإسلامى مثل قيمة العمل والتضامن الأسرى واحترام كبار السن وتقديس الأبوة والأمومة وظهرت منذ نهاية السبعينيات تيارات فكرية وسلوكية جديدة فى سياق التغيرات العلمية والتكنولوجية التى شهدتها دول الشمال والتى تواكبت مع المحاولات الدؤوبة التى تبذلها القوى العالمية من أجل عولمة الثقافة والتعليم والدين وسائر مكونات المنظومة الحضارية التى كانت تحتفظ باستقلال نسبى خارج دوائر وقيم السوق العالمية. وقد كان لذلك كله مردوده السلبي فى مجال العلاقات الاجتماعية والثقافة والإعلام والاتصال حيث احتدم النقاش حول الأدوار الجديدة للإعلام سواء فى المجال السياسى أو الاجتماعى والثقافى. إذ أصبح الإعلام يشغل موقعاً مركزياً فى الاستراتيجيات والسياسات التى تستهدف بناء المجتمعات المعاصرة سواء فى الشمال أو فى الجنوب وإن كان ذلك أكثر وضوحاً فى المجتمعات الصناعية المتقدمة تكنولوجيا حيث يبرز دور الإعلام فى إعادة توزيع مراكز القوى فى مختلف المواقع بدءاً بالأسرة والمدرسة والمصنع والمستشفى ثم مواقع العمل والترفيه على مستوى الأقاليم ثم مستوى الدولة ككل. وإذا كانت العولمة تسعى إلى خلق ثقافة كونيه شامله تغطى مختلف جوانب النشاط الإنسانى وتتطلع إلى خلق الإنسان العالمى المبرمج ذى البعد الواحد المؤمن بأيديولوجية السوق العالمية والمتوحد مع مصالحها ورموزها وشعاراتها فإن ذلك ما كان ممكناً أن يتحقق إلا بفضل الثلاثى التكنولوجى الصاعد الذى يعمل فى تناغم وتكامل غير مسبوق. ويضم حسب ترتيب الأهمية كل من وسائل الإعلام السمعبصرى وشبكات المعلومات وشبكة الاتصالات اللاسلكية وفى ضوء ذلك أصبحت الإمبراطوريات السمعبصرية (الفضائية والأرضية) هى المؤسسة التربوية والتعليمية الجديدة التى حلت مكان كل من الأسرة والمدرسة التى تقوم بدور أساسى فى تلقين النشء والأجيال الجديدة المنظومة المعرفية المنزوعة من سياقها التاريخى والقيم السلوكية ذات النزعة الاستهلاكية حيث تقوم بتقديم معلبات ثقافية محكمة الصنع تتضمن

منظومة جديدة من القيم تدور حول تشجيع النزعة الاستهلاكية وغرس قيم الأنانية والفردية والروح النفعية.

المحور الثاني:

وقبل أن نتطرق إلى رصد وتحليل صورة المرأة العربية في الإعلام يجدر بنا أن نشير إلى التغير الذي طرأ على مكانة المرأة بحكم موقعها المركزي داخل الأسرة في عصر العولمة وتأثير ذلك على صورتها في وسائل الإعلام حيث يلاحظ تزايد أهمية الدور الذي تقوم به قوة العمل النسائية في مضاعفة التراكم الاقتصادي لصالح الشركات العالمية والمحلية. فالمرأة في نظر هذه الشركات تعد منجماً جديداً يجب استغلاله إلى آخر قطره أولاً باعتبارها تمثل قوة العمل الرخيصة غير المنظمة التي لا تحتاج إلى ضمانات صحية أو تأمينية فهي تقبل ما لا يقبله الرجل سواء في مجالات القطاع غير الرسمي أو في الحرف والخدمات والصناعات التكميلية أو في المنازل.

وثانياً: باعتبارها ربة بيت لا تزال تقوم بالأعمال المنزلية الحيوية دون أجر فضلاً عن دورها الأساسي في الاستهلاك الذي يعد عماد السوق في عصر العولمة والمرأة ربة البيت التي لا تعمل (وهنا يجدر الإشارة إلى أن أكثر من ٧٥٪ من النساء العربيات ربات بيوت) تعد المستهلكة الأولى في الأسرة بل هي التي تحدد اتجاهات الاستهلاك لدى سائر أعضاء الأسرة كل ذلك يضاعف من مكانة المرأة كركن أساسي في التراكم الاقتصادي القائم على عولمة السوق لصالح المتحكمين في مجلس إدارة اقتصاد العالم.

وإذا كنا نتحدث عن المرأة العربية والإعلام علينا أن نؤكد مجموعة من الحقائق أولها أن قضية تحرير المرأة تعد جزءاً عضوياً من قضايا تحرير جميع المستضعفين من الرجال والنساء الذين ينتمون إلى الفئات المقهورة طبقياً واجتماعياً وثقافياً وسياسياً وفي مقدمتهم أهالي الريف والبوادي الذين يعانون أساساً من

التهميش السياسي والاقتصادي ويضاف إلى ذلك التهميش الثقافي والاجتماعي بالنسبة للمرأة أي الطوق الحديدي الذي شكلته العادات والتقاليد السلفية عبر مئات السنين والتي رسخت فكرة النقص الأنثوي، الهيمنة الذكورية. والوجه الآخر لهذه الحقيقة يتمثل في كون الإعلام جزءاً لا يتجزأ من النظام السياسي والثقافي العربي ولا يمكن أن نتناوله بمعزل عن هذا النظام وهذا يقودنا إلى الحقيقة الثانية التي تشير إلى بروز وجهين متناقضين للقضية، فإذا كان لا بد أن نعترف بأن هناك تحسناً ملموساً في أوضاع النساء العربيات خلال النصف الأخير من القرن العشرين خصوصاً في ظل الجهود العالمية التي بذلتها الأمم المتحدة من أجل النهوض بأوضاع النساء ومحاولة إدماج المرأة في تنمية مجتمعاتها والذي تمثل في استراتيجية نيروبي ١٩٨٥ ومنهج العمل الصادر عن مؤتمر بكين ١٩٩٥، وهذا هو الوجه المضئ للقضية فإن الوجه المعتم يشير إلى أن معظم الأهداف الواردة في وثائق هذه المؤتمرات لم تتحقق فلا تزال النساء العربيات محرومات من معظم حقوقهم المدنية والثقافية والاقتصادية فإذا كانت نسبة التعليم تتراوح ما بين ٣٥٪ إلى ٥٠٪ بين النساء العربيات فإن نسبة الأمية تتراوح ما بين ٤٠٪، ٨٨٪ ولا يزال ٧٠٪ من البنات في سن التعليم خارج المدرسة كما أن مناهج التعليم تركز على التقسيم التقليدي لأدوار الجنسين علاوة على الموروث الثقافي الذي يعزز فكرة النقص الأنثوي، وتشكل النساء نسبة تتراوح بين ١٠٪، ٤٠٪ من قوة العمل العربية ولكنها محصورة في القطاع الزراعي والخدمي وتفتقر إلى الضمانات التأمينية في كثير من الدول العربية والنساء العربيات أول ضحايا البطالة. هذا ولا تزيد نسبة مشاركة المرأة العربية في المؤسسات التشريعية عن ٤٪ بينما تزيد في الدول النامية عن ١١٪، ورغم أن المرأة العربية شاركت في جميع معارك التحرر الوطني والمقاومة ضد الغزو الأجنبي في مصر وسوريا والجزائر وفلسطين وعدن وجنوب لبنان.. إلا أن مشاركتها في مواقع صنع القرار لا تزال محدودة إذ لا يزيد عدد الوزيرات عن ١٠ وزيرات من ٦٠٠ وزير في الوطن العربي.

وهنا لنا وقفة.. علينا أن نتذكر دوماً أن المرأة العربية كانت سنداً ورفيقاً للشوار في ثورة المليون شهيد في الجزائر كما كانت حارسة أمينة للتراث العربي الإسلامي على امتداد ١٣٠ عاماً في مواجهة محاولات الفرنسة وقطع اللسان العربي ومحو الذاكرة القومية.

وفي فلسطين ظلت المرأة العربية على امتداد ٧ أجيال تزود ميادين المقاومة بآلاف الشهداء منذ هبة البراق ١٩٢٩ وانتفاضة القسام ١٩٣٥ والثورة الفلسطينية الكبرى ١٩٣٦ وحرب ١٩٤٨.. وبعد اغتصاب الوطن الفلسطيني وإقامة الكيان الصهيوني ظلت تواصل دورها الخالد في المنافي تزود ساحة النضال بمزيد من الشهداء تنجب وتربى وتدفع بسخاء بفلذات أكبادها فداء للوطن.

وفي الجنوب اللبناني كانت المرأة اللبنانية نموذجاً يحتذى في مواجهة الغطرسة الصهيونية وأعطت الدرس لجميع نساء العالم صموداً وفداء واستمرارية وفي العراق لا تزال المرأة العربية صامدة شامخة في مواجهة الحصار الظالم للوطن الشقيق على مدى عشر سنوات. ثم الاحتلال الأمريكي منذ عام ٢٠٠٣ وفي السودان قاومت المرأة السودانية جنباً إلى جنب مع الرجل كافة أشكال السيطرة الأجنبية ومحاولات تمزيق الوطن إلى شمال وجنوب.. وتتوالى صور الصمود والاستبسال من جانب المرأة العربية في ليبيا واليمن وسوريا ودول الخليج تحاول أن تفك أسر التركة التاريخية من الموروثات البغيضة التي تحاصر عقلها وإرادتها تحت مسميات وحجج عديدة.

ورغم التعديلات التي طرأت على قوانين الأحوال الشخصية مما يضمن للمرأة العربية توفير حماية أكبر وحقوقاً أوسع إلا أنها لا تزال تعاني من بعض صور التمييز التي تتمثل في احتفاظ الزوج بالحق المطلق في الطلاق وتعدد الزوجات وحضانة الأطفال ولا تزال محرومة من منح جنسيتها لأبنائها، وتعاني معظم النساء العربيات في الحضر والريف والبادية من شتى أشكال العنف المادي والمعنوي الذي

يمارس ضدهن سواء داخل الأسرة أو في أماكن العمل أو في الأماكن العامة مما يعد انتهاكاً صارخاً لحقوق الإنسان.

ويضاف إلى ذلك الآثار السلبية لسياسات التكيف الاقتصادي الهيكلي من تفاقم المديونية واتساع الفجوة التكنولوجية بين العالم العربي والدول الصناعية المتقدمة في ظل غياب التعاون العربي مما أدى إلى بروز صراع الأدوار بين أعضاء الأسرة العربية إناث وذكور وتفكك العلاقات الأسرية وانتشار ظاهرة الطلاق بكل مترباتها الحادة على تنشئة الأجيال حيث توارث القيم الأخلاقية واكتسحت منظومة القيم الاستهلاكية المصاحبة للعولمة في طريقها العديد من الجوانب الإيجابية التي تميز بها التراث العربي الإسلامي مثل قيمة العمل والتضامن الأسري واحترام كبار السن وتقديس الأبوة والأمومة.

المحور الثالث: إبداع المرأة العربية في مجال الصحافة والإعلام

ويتناول المحور الثالث السؤال المطروح ماذا قدمت المرأة العربية للإعلام؟

كانت المشاركة النسائية في الصحافة العربية أسبق من كل الميادين فمنذ نهايات القرن التاسع عشر احتلت الصحافة النسائية موقعها على ساحة العمل الإعلامي المصري حيث برزت هند نوفل في مجلة الفتاة ١٩٨٢ ولبية هاشم في مجلة النهضة النسائية ١٩٠٦ ثم بلسم عبد الملك (المرأة المصرية) وتفيدة علام في (أمهات المستقبل) ومنذ عام ١٩٠٨ توالى أسماء الكاتبات والصحفيات جميلة حافظ وفاطمة نعمت راشد ومى زيادة ثم جميلة العلايلي ووداد سكاكيني وأسماء فهمى وسهير القلماوى وبنيت الشاطىء وأمينة السعيد.

وقد تزايدت المشاركة النسائية في الإعلام العربي على امتداد العقود الثلاثة الماضية وأصبحت نسبة الإعلاميات العربيات تتراوح ما بين ٢٤٪ في اليمن و ٣٠٪ في مصر و ١٧٪ في البحرين و ٢٥٪ في كل من سوريا وتونس كما تبوأَت المرأة العربية

العديد من المواقع القيادية في الإعلام المرئي والمسموع وفي رئاسة تحرير الصحف في كل من مصر والعراق والجزائر والمغرب وتونس وسوريا والسودان والكويت وليبيا واليمن. هذا علاوة على العديد من الأسماء التي برزت في مجال الإعداد والإخراج والدراما الإذاعية والتلفزيونية مثل أنعام محمد علي وملك إسماعيل وآمال فهمي وفتحية العسال يضاف إليهم الكثيرات في الصحافة المكتوبة أمثال إنجي رشدي وجاكلين خوري وبهيرة مختار وسناء البيسي وإقبال بركة وسكينة فؤاد وفريدة النقاش وإقبال بركة.

وإذا كان لمصر فضل السبق في ظهور الصحافة النسائية في نهاية القرن التاسع عشر فإن القرن العشرين قد شهد منذ بداياته الأولى ظهور الصحافة النسائية في سائر الدول العربية. إذ حظى لبنان بالمرتبة الثانية في ظهور الصحافة النسائية وذلك في أوائل القرن العشرين أما سوريا فكانت الثالثة من حيث الترتيب حيث صدرت عام ١٩١٠ مجلة العروس. وتنوعت اهتمامات الصحافة النسائية في ذلك الوقت بين الاهتمامات التقليدية للمرأة من ناحية وبين مناقشة قضاياها والمطالبة بحقوقها الشرعية من ناحية أخرى ومن القضايا التي ناقشتها الصحافة النسائية في مصر تعليم المرأة. أما لبنان فكانت الصحافة النسائية بها تدعو لترقية المرأة ثقافياً والاهتمام بالأمور الأسرية بينما اقتصرت الصحافة في سوريا على التركيز على تلك الموضوعات النسائية حيث كثرت فيها النصائح الزوجية والبيئية والملاحظات الخاصة بتربية الأطفال وإعداد الطعام واختيار الملابس. هذا واتسمت الصحافة خلال هذه الفترة بالمبادرات الفردية وارتباط تلك الصحف بأصحابها وخلال فترة العشرينيات من القرن العشرين امتد تيار الصحافة النسائية ليشمل العراق إلى جانب مصر ولبنان وسوريا حيث بدأت الصحافة النسائية في العراق سنة ١٩٢٣.

وتطورت الصحافة النسائية في مناقشة قضايا المرأة لاسيما في مصر حيث طرحت الدعوة إلى التوسع في تعليم المرأة وإشراكها في التعليم العالي أسوة بالبنين والسعي لتحرير المرأة المصرية من قيود العادات والتقاليد كما شاركت المرأة المصرية في ثورة ١٩١٩ أول ثورة تحريرية في الوطن العربي وكان لذلك أثره الإيجابي في طرح قضايا جديدة مثل السفور والمطالبة بحق المرأة في المشاركة السياسية حيث طالبت هدى شعراوي ورفيقاتها بحق المرأة في التصويت في الانتخابات النيابية.

وفي لبنان استمرت الصحافة النسائية في الحث على ترقية المرأة أدبيا وعلميا وبث روح التربية الاستقلالية وتحسين الحياة العائلية، هذا إلى جانب الاهتمامات التقليدية مثل التدبير المنزلي وشئون الأسرة والتي ظهرت في مجلة (ليلي) العراقية التي قادت حملة لتحرير المرأة في العراق.

هذا واستمرت المبادرات الفردية هي الغالبة في الصحافة للنسائية خلال هذه الفترة.

أما فترة الثلاثينات من القرن العشرين: فقد شهدت ظهور الصحافة النسائية في بلاد المغرب العربي وبالتحديد في تونس حيث كانت الدولة الخامسة في إصدار المجلات النسائية وتميزت هذه المرحلة بجدية وأهمية القضايا المطروحة بالصحافة النسائية خاصة تلك التي تتعلق بحقوق المرأة ففي مصر اهتمت الصحافة النسائية بخلق وعي نسائي بين القراء والقارئات وإقناع المواطنين بمكانة المرأة وما تؤديه من دور هام في البلاد، كما خلقت الصحافة النسائية أدباً نسياً له طابعه الخاص ونبعت الصحافة النسائية في لبنان إلى مخاطر التخلي عن التقاليد وأكدت ضرورة الاهتمام بتعليم المرأة، وعالجت الصحافة النسائية بالعراق قضايا تحرير المرأة وبعض المشكلات الاجتماعية المرتبطة بها مثل "إجبار الفتيات على الزواج" والمطالبة "بتخفيض المهور" وكذلك الدعوة إلى نزول المرأة لميدان العمل هذا ولم تقتصر

الصحافة النسائية العربية على معالجة قضايا المرأة بل تطرقت إلى القضايا والأحداث السياسية كذلك.

ويلاحظ في فترة الأربعينات من القرن العشرين: أنه بالرغم من صدور عدد كبير من الصحف النسائية خلال هذه المرحلة إلا أنها اتسمت في معظمها بالاهتمام بالأمر التقليدي للمرأة "كفن التجميل والاهتمام بالمظهر - صحة الأم والطفل". ويمكن أن يستثنى من ذلك "مجلة بنت النيل" لدرية شفيق التي سعت من أجل نيل المرأة لحقوقها السياسية والمطالبة بإصدار التشريعات التي تكفل ذلك، أيضاً مجلة (بنت الوادي) في السودان أولى المجلات النسائية به والتي طالبت بتعليم وعمل المرأة.

وفي حقبة الخمسينيات من القرن العشرين: دخلت دول عربية جديدة مجال الصحافة النسائية "كالأردن" مثلاً التي أصدرت مجلة (فتاة الغد) سنة ١٩٥٠ وعالجت المشكلات الاجتماعية للمرأة. وشهدت هذه الفترة التزاوج بين إثارة القضايا الخاصة بتعليم وعمل المرأة وبين الاهتمام بالأمر التقليدي (التجميل - الأزياء - المطبخ.. الخ) وذلك على مستوى الصحافة النسائية العربية ككل.

كما بدأت المبادرات الفردية في إصدار الصحف النسائية تقل وبدأ يظهر دور الجمعيات والاتحادات ودور الصحف وتجلي ذلك في صدور مجلة حواء عن دار الهلال عام ١٩٥٧، مجلة "هريزون" اللبنانية التي أصدرتها الجمعية الخيرية الأرمنية العامة. وكذلك مجلة "الاتحاد النسوي العراقي" التي أصدرها الاتحاد النسائي ببغداد.

(١٣)

الإعلام والمرأة الأفريقية

تؤكد الدراسات الانثروبولوجية والسياسية والاجتماعية ان النساء هن الفئة الوحيدة التى عانت من التمييز منذ عصر الصيد وأن جميع الثورات التى شكلت مسار البشرية من عصر إلى عصر بدءاً بثورة العصر الحجري التى نقلت البشرية من عصر الصيد إلى المرحلة الزراعية التى شهدت الحضارات القديمة ثم الثورة الصناعية التى نقلت البشرية من مرحلة الزراعة إلى الصناعة وأدت إلى ظهور الرأسمالية الأوربية والطبقات الوسطى وانهيار النظام الاقطاعى. ثم الثورة الثالثة التى نقلت البشرية من مرحلة الصناعة إلى الثورة العلمية والتكنولوجية جميع هذه الثورات لم تغير كثيراً من جوهر التمييز بين المرأة والرجل ولعله من المفيد قبل التحدث عن دور الإعلام الأفريقى فى النهوض بأوضاع المرأة الأفريقية تجدر الإشارة إلى مجموعة من الحقائق الخاصة بالنساء الأفريقيات.

١ - لابد أن نعترف بأن هناك تحسناً ملموساً فى أوضاع النساء الأفريقيات خلال النصف الأخير من القرن العشرين وصولاً إلى الألفية الثالثة. وذلك بفضل الجهود الرسمية والشعبية دولياً وإقليمياً ومحلياً وأيضاً اسهام المؤتمرات الدولية فى رفع مستوى الوعى العالمى بقضية المرأة منذ مؤتمرات المكسيك ١٩٧٥ ونيروبي ١٩٨٥ وبكين ١٩٩٥ عدا صدور الاتفاقية الدولية لإلغاء التمايز بين الجنسين عام ١٩٨٢. وهذا هو الوجه المضى وعلى الجانب الآخر يأتى الوجه

المعتم إذ أن معظم الأهداف الواردة في وثائق هذه المؤتمرات لم يتحقق فلا تزال النساء الأفريقيات محرومات من كثير من حقوقهن المدنية والاقتصادية والثقافية وتفضيلاً لذلك.

٢- رغم ما تتميز به الدول الأفريقية من تقارب اجتماعي وثقافي ونضال مشترك ضد المستعمر الأوربي إلا أن ذلك لا ينفى تنوع أنظمة الحكم والتفاوت الاجتماعي والاقتصادي فضلاً عن اختلاف نمط الإنتاج ومنظومة القيم المجتمعية وينعكس ذلك بوضوح على النساء الأفريقيات فالأزمة الاقتصادية الراهنة تؤثر بصورة سلبية على الفئات الكادحة كافة وعلى النساء بصورة أكبر فالفقر له وجه امرأة كما تتأثر المرأة الأفريقية بالصراعات السياسية والحروب الأهلية والمجاعات خصوصاً في يوروندي والصومال ونيجيريا والسودان.

٣- لا يزال ٧٠٪ من البنات الأفريقيات في سن التعليم خارج المدرسة كما تعاني نظم التعليم الأفريقية من أزمة غياب التنسيق مع سوق العمل وما يترتب عليه من تخرج أفواج من العاطلين والعاطلات كما أن المناهج التعليمية والتشريعات القانونية وتفسير النصوص الدينية لا تزال تكرر الموروث الثقافي السلبي الذي يرسخ فكرة النقص الأنثوي ويعزز التمايز بين الجنسين.

٤- تشكل المرأة الأفريقية نسبة تتراوح بين ٣٥-٥٥٪ من قوة العمل الأفريقي علماً بأن هذه الإحصاءات لا تعكس الحقيقة كاملة لأن عمل المرأة المنزلي لا يدرج في قوة العمل الرسمية. ورغم ذلك فإن النساء والأفريقيات هن أول ضحايا البطالة ولا يزال أجر النساء أقل بكثير من الذكور في معظم القطاعات الخدمية والاقتصادية.

٥- تتعرض المرأة الإفريقية لأشكال متباينة من العنف البدني والنفسي أسرياً واجتماعياً.

في ضوء هذه الحقائق تطرح هذه الندوة من خلال العديد من الأوراق (الصور المتبادلة بين المرأة الأفريقية والإعلام) وهنا يبرز السؤال المحوري: هل يسعى الإعلام الأفريقي لحث المجتمع على سد الفجوة النوعية والحقوقية بين المرأة والرجل أم يسعى إلى الإبقاء على الأوضاع التقليدية للمرأة رغم ما تحمله من ظلم اجتماعي وإنساني، وهل يسعى الإعلام الأفريقي إلى تفعيل ما تشير إليه الدساتير المحلية والعالمية من تأكيد قيم المساواة القانونية والتشريعية بين المرأة والرجل أم أنه يعمل على تكريس الواقع الراهن للمرأة بكل ما تحويه من قصورات وفجوات حقوقية ساعياً إلى استثمار المرأة من خلال الإعلانات لترويج القيم الاستهلاكية لصالح السوق العالمية؟

كى نستطيع الإجابة عن هذه التساؤلات لابد من الإحاطة بثلاثة محاور أساسية:

المحور الأول: يتناول السياسات الإعلامية تجاه المرأة وتتضمن صورة المرأة الأفريقية في وسائل الإعلام المقروء والمرئي والمسموع والفضائيات والإعلام الإلكتروني وموقف القيادات الإعلامية من قضايا المرأة الأفريقية.

ويركز المحوران الآخران على العنصر البشري أى الإعلاميات الأفريقيات ووعيهن بقضايا النوع الاجتماعي وهومهم المهنية والأسرية والاجتماعية والجمهور النسائي وعلاقته بوسائل الإعلام الأفريقية سواء من حيث الاستخدامات أو التفضيلات علاوة على مدى اهتمام وسائل الإعلام الأفريقية بإشراك الجمهور النسائي وتلبية احتياجاته الاتصالية.

يشير المشهد الإعلامي الأفريقي الراهن إلى وجود أربعة تيارات فكرية تتحكم في اتجاهات ومواقف الإعلام الأفريقي تجاه قضايا المرأة وحقوقها.

١- التيار التقليدي:

الذي يستمد مشروعيته واستمراريته من الموروثات الثقافية والتفسير الذكوري السلفي للأديان والخضوع النسائي للموروثات ويكرس فكرة النقص الأنثوي ودونية المرأة وعدم احتساب العمل المنزلي للمرأة اقتصادياً واجتماعياً كما يستفيد من الظروف المتراجعة في الدول الأفريقية والتي تتمثل في تفكك المنظومة القيمية وتخلي الدولة عن مسؤولياتها الاقتصادية والاجتماعية وغياب الديمقراطية والتبعية الاقتصادية للسوق العالمية. ويعبر هذا التيار عن نفسه بكثافة في معظم وسائل الإعلام الأفريقية المقروءة والمرئية والمسموعة والفضائيات من خلال الصور التي تحصر المرأة في أدوارها المنزلية واهتماماتها الأنثوية وخضوعها المطلق للسلطة الذكورية في الأسرة الأفريقية سواء الأب أو الأخ أو الزوج.

٢- التيار الاجتماعي التحرري:

ويرجع هذا التيار إلى دعوات الرواد المستنيرين الذين طالبوا بتحرير المرأة في إطار حركة الأحياء القومي وحركات التحرر الوطني الأفريقية وقد تلقى هذا التيار قدراً كبيراً من الزخم والاستمرارية منذ سبعينيات القرن العشرين بفضل جهود الأمم المتحدة وسعيها الدؤوب من أجل تحقيق المساواة الحقوقية بين المرأة والرجل وإدماج المرأة في المجالات التنموية والأنشطة المجتمعية كافة.

٣- التيار النسوي الوافد من الغرب:

ويحصر نضال المرأة في أطر معزولة عن السياق المجتمعي ويدعو إلى تحطيم النظام الأبوي الذي يميز نمط العلاقات القبلية والأسرية في المجتمعات الأفريقية ويعبر عن نفسه في بعض الكتابات النسوية ويتجسد في كثير من المنظمات النسائية الأفريقية التي كرست هامشية النضال النسائي في معظم الدول الأفريقية.

٤- التيار العولمي:

يستفيد من فلسفة وأفكار التيار التقليدي وتستمر مقولاته وقناعاته في التركيز على أنوثة المرأة واستخدامها كمادة جاذبة في الإعلانات كما يركز على النساء الأفريقيات الفقيرات كقوة عمل رخيصة غير مؤمنة على نساء الطبقة الوسطى كعنصر استهلاكي لصالح السوق العالمية والمحلية. لقد انعكست هذه التيارات على مواقف الإعلام الأفريقي من قضايا المرأة. وتبلورت في مجموعة من الحقائق نظرهما على النحو التالي:

١- انحياز الإعلام الأفريقي طبقياً لنساء المدن على حساب نساء الريف والطبقات الشعبية.

٢- انحياز الإعلام الأفريقي مهنيّاً للنخب النسائية في السياسة والفن والرياضة والاقتصاد والبيئة على حساب الجموع النسائية الكادحة في مجالات العلم والتعليم والطب والعمل الاجتماعي التطوعي وربات البيوت والعاملات والمناضلات السياسات والسجينات والمعوقات.

٣- انحياز الإعلام الأفريقي لمرحلة الخصوبة في عمر المرأة من سن ٢٠-٤٠ عاماً (الزوجة والأم) وتجاهل الطفلة الأنثى والمراهقة والمسنّة.

٤- عدم الاقتراب من قضايا الأحوال الشخصية والأسباب الاجتماعية للجرائم النسائية.

٥- تصاعد الاهتمام بقضايا الأجندة الأجنبية على حساب الأجندة المحلية التي تركز على الفقر والأمية والبطالة والهجرة والرعاية الصحية والاجتماعية للمرأة الأفريقية وسائر هموم ومشكلات الغالبية العظمى من نساء الريف والحضر في أفريقيا.

٦- غياب الرؤية النقدية في معالجات الإعلام الأفريقي لقضايا المرأة والتركيز على الإنجازات السطحية ذات الطابع المظهري والاحتفالي.

كما تشير هذه الدراسات أن السياسات الإعلامية تجاه المرأة الأفريقية لا تزال تدور حول التغطية الإعلامية القائمة على الإثارة والمعالجات الشكلية ذات الطابع الاحتفالي مما يؤكد عليه كل من التيارين التقليدي والعولمي. وفي مواجهة سطوة التيار التقليدي واقتحام التيار العولمي مدعوماً بقوة السوق والإعلانات يحاول التيار الاجتماعي التمدد أن يجد له موقفاً لائقاً في الإعلام الأفريقي حيث يحرص على أن يطرح رؤية متوازنة لقضايا المرأة الأفريقية والتحديات التي تواجهها مستلهما استنارة الرواد الأوائل وملتزمًا بالتوجهات الدولية التي تسعى إلى إنصاف نساء العالم حفاظاً على الصحة النفسية والمجتمعية والتوازن الإنساني للمجتمعات البشرية في ضوء كل ما طرحناه قد يحق لنا أن نتساءل كيف للمجتمعات الأفريقية التي يهيمن عليها الفكر الأبوي والانبهار بالرؤى الغربية وغلبة المصالح الفردية وغيبة الرؤية الاجتماعية كيف يتسنى لها أن تأمل في تحقيق أى تقدم سياسى أو اجتماعى أو ثقافى دون أن تتبنى وتطبق فعلياً قيمة العدالة النوعية التي تعد شرطاً أساسياً لإرساء العدالة المجتمعية بمعناها الشامل سياسياً واقتصادياً وثقافياً فقبل أن نطالب بتحرير المرأة الأفريقية وتغيير صورتها الإعلامية علينا أن نهى المناخ العام لتحقيق ذلك من خلال اشراك جميع المؤسسات السياسية والاجتماعية والتعليمية والدينية والثقافية لإرساء سياسات للتوعية المجتمعية لكل من الرجال والنساء معاً والسعى بجدية لتصفية التشريعات الجائرة التي تقوم على أساس التمييز النوعى في مجالات التعليم والعمل والمشاركة السياسية والمجتمعية والإعلام. إن الإعلام البديل الذى نتطلع إليه هو الذى يحرص على طرح رؤى نقدية تصمد أمام الإعلام التجارى وتكشف مساوئه ودوره فى تزيف وعى الجمهور بوضعية المرأة الأفريقية وأدوارها وطموحاتها وحقوقها المشروعة ويتشكل من كوادر إعلامية تتبنى الفكر

العقلانى المستنير وتكون قادرة على إرساء استراتيجية إعلامية تشارك المرأة فى إعدادها وتفعيلها وتنتج خطاباً إعلامياً منصفاً ومتوازناً وقادراً على تصحيح رؤية المجتمع الأفريقى للمرأة ليس فقط لأنها نصف المجتمع بل لأنها أيضاً نصف الحقيقة.

(١٤)

إشكالية الحرية في كتابات المرأة العربية

(تجربة ذاتية)

لقد فرض الصمت على المرأة عبر التاريخ وتم التعتيم على كل ما يتصل بها وبحياتها حيث أطلق على حياة النساء ما يسمى بثقافة الصمت.

ويرى الناقد الفرنسي أدوين أوردنر أن النساء يشكلن المجموعة الصامتة في المجتمع في حين يشكل الرجال المجموعة أو الفئة المهيمنة التي تسيطر على اللغة وأساليب التعبير ولذلك كانت المرأة تعبر عن آرائها ومعتقداتها باستخدام الأساليب التي فرضها وكرسها الرجل وإن ما يحدد كتابة المرأة بالأساس هو تجربتها الذاتية وما تتميز به من زخم شعوري. وما يرتبط بها من معاناة وقمع ومحاولة دائبة للنهوض وإثبات الذات وكل هذه العوامل تشكل رؤيتها للذات وبلور علاقتها بالعالم وموقفها منه.

لقد ظلت الكتابة عبر التاريخ سلطة وصاحب القلم ليس إلا صاحب سلطة وظلت الكتابة امتياز الرجال الخاص وتجسيد لسلطتهم ومنذ البدء عرف العرب أن سلطة الكتابة لا يجب أن تورث إلى النساء وهنا نتذكر وصية الأسلاف في تربية البنات (لا تعلموهن الكتابة) وكان الهدف منها هو ألا تبعث النساء برسائل يثونها عواطفهن للرجال) ومن هنا جاء حرمان النساء من التعليم ولم يسمع صوت المرأة

إلا فيما ندر. وتحولت ثقافة الصمت إلى جزء من الثقافة العربية. ومن أجل تغيير ميزان القوى في المجتمع برزت ضرورة الإنصات لصوت المرأة والاعتراف بوجهة نظرها ورؤيتها الذاتية لنفسها وللعالم كما أنها تطرح فكرة إمكانية خلخلة البنية الاجتماعية والثقافة القائمة ولأن سلطة الكتابة ظلت لمدة طويلة من حق الرجل وتم التعامل مع هذا الأمر بوصفه حقيقة مطلقة ولأن المطلق يصعب تغييره لذلك أثارت كتابات المرأة ضجة لم تهدأ حتى الآن وهذه الضجة ليست سوى خلخلة للبنية الذكورية الراسخة المتحيزة.

ومنذ زمن بعيد فرض الصمت على إمكانية التعبير الإبداعي من جانب المرأة العربية وهذا لا يعنى غياب المبدعات في التاريخ العربى ولكنه يعنى قله عددهن الملحوظة بالنسبة لعدد الرجال فالعقم الإبداعي فرض على المرأة العربية بسبب ظروف مجتمعية وتاريخية غير منصفة وهذه الظروف نفسها هى التى فرضت خصوصية الكاتبة العربية. وإذا أخذنا فى الاعتبار أن مجتمعاتنا العربية تسعى حالياً للتحرر من القهر بشكل عام وذلك تحت مسمى (قضية الحريات) التى تتضمن حرية التعبير والبوح والإبداع ولكن هذه المجتمعات لا تزال متحفظة برجالها ونسائها تجاه قضية الإبداع النسوى ويتجلى ذلك فى عدة أشكال أبرزها تغييب الممارسة النقدية النسوية فضلاً عن إحالة كل ما تكتبه المرأة على خبراتها الذاتية علاوة على إحكام أطروحات المحرمات حولها والحصار الذى يطوق العقل الجمعى الذى لا يريد أن يعترف أن المرأة إنسان قبل أن تكون أنثى ولا دخل لنوعها البيولوجى بمكانتها فى السلم الاجتماعى. وهنا تكمن المفارقة فالمجتمع الذى يلح فى المطالبة بحل قضية الحريات لا يعترف بالمرأة كمواطن كامل الأهلية له نصيبه فى تلك الحريات. فالمجتمع يعطى للرجل صلاحيات وامتيازات عديدة منها الكتابة والتعبير عن مشاكله وأحلامه وإحباطاته ونزواته ولكن حينما تكتب المرأة تعبر أسواراً عالية محاطة بالأشواك من كل جانب من جانب الأسرة ومجال العمل والأهل والأصدقاء والجيران وجميع الفئات التى تتعامل معها.

فهناك دائماً من يتحدث بالنيابة عن المرأة ويفكر لها ويوجهها باعتبارها قاصر غير قادرة على اتخاذ القرار وليس لديها منطق وحكمه الرجل ولذلك قامت البنية التحتية للمجتمع الأبوى على مركزية الكلمة الذكورية والمنطق الذكوري الذي لا يستوعب إلا المنطق واللغة الماثلان له ويكتسب إيجابياته من إضفاء السلبية على الآخر المغاير. وتقوم هذه الثقافة الأحادية الذكورية في جوهرها بوأد كل بذور تنبئ بالاختلاف كما تقاوم أى تميز معرفي للخطاب النسوى وهنا تبرز مسئولية هذه البنية الذكورية التى تكرس التمييز والقهر الواقع على الرجل والمرأة معاً.

لقد مارست ثلاثة أنواع من الكتابة بدأت بتجربتي الصحفية فى جريدة الأهرام على مدى عشر سنوات خلال حقبة الستينيات وأوائل السبعينيات وأتيح لى فرصة التعلم واكتساب الخبرة المهنية من زملائي ورؤسائي من قدامى الصحفيين ولكن كان هناك العديد من الخطوط الحمراء التى فرضتها ظروف المرحلة السياسية خلال الحقبة الناصرية والتى التزم بها جميع الصحفيين والصحفيات وتمثلت فى وجود الرقيب وسلطة رئيس التحرير ومعاونه من رؤساء الأقسام وكان محظوراً ممارسة أى شكل من أشكال النقد للسلطة الحاكمة وأجهزتها الأمنية ولم يقتصر ذلك على مواد الرأى بل شمل منظومة الأخبار والتعليقات والتحقيقات الصحفية.

كان عدد الصحفيات قليلاً ولم يكن مسموحاً لهن بتقلد أية مواقع قيادية داخل الصحيفة فيما عدا قسم المرأة الذى أنحصر دوره فى تغطية أخبار وأنشطة نجوم المجتمع من نساء الطبقة الوسطى وأدوارهن التقليدية فى رعاية الأسرة والأطفال والحفاظ على الزوج وشئون الطهى والمكياج والأزياء... الخ.

ومن أهم الصعوبات المهنية التى واجهتنى فى تلك الفترة علاقتى بمصادر الأخبار والمعلومات التى كان يحتكرها الوزراء والمحافظين والقيادات التنفيذية فى مجالات الصحة والإسكان والتعليم والاقتصاد والرعاية الاجتماعية إذ كانوا جميعاً

من الرجال المسكونين بالرؤية التقليدية للمرأة باعتبارها أنثى يجب اقتناصها وقد تعرضت للعديد من الإغراءات والمساومات من بعض المصادر الذكورية مقابل حصولي على بعض الأخبار الصحفية الهامة مما كان يضطرني إلى مقاطعتهم وإبلاغ رؤسائي في الصحيفة. كما تعرضت لمحاولة تجنيدى في أجهزة الأمن السياسى ضد رئيس تحرير الأهرام وذلك عقب اعتقالى عام ١٩٦١ ضمن مجموعات اليسار المصرى. والمرة الوحيدة التى تعرضت للفصل من عملى الصحفى كانت على يد أول وزيرة للشئون الاجتماعية د. حكمت أبو زيد عندما تعرضت بالنقد للحركة النسائية المصرية فى مقال نشرته صحيفة (الاشتراكى) التى كان يصدرها الاتحاد الاشتراكى. لقد استمرت هذه الصعوبات وتعددت أشكالها لدى الأجيال الجديدة من الصحفيات والإعلاميات العربيات.

وهنا يجدر الإشارة إلى الحقائق التى أجمعت عليها كل من الدراسات وحلقات النقاش والدورات التدريبية التى شاركت فيها على المستويات المحلية والعربية والدولية والتى كشفت عن العديد من الصعوبات والعوائق التى تعترض المسيرة المهنية للصحفيات العربيات وتعزى إلى المناخ الثقافى الذكورى الذى يسيطر على بيئة العمل الإعلامى ويعيد إنتاج بل يكرس الرؤية النمطية لقضايا المرأة كما يعتمد تهميش أغلب القضايا ذات الأولوية القصوى مثل الأمية وقوانين الأحوال الشخصية والفقر ومشكلات المرأة الريفية كما كشفت هذه الدراسات عن تحيز القيادات الإعلامية ومعاناة الإعلاميات من الصورة التقليدية السائدة لدى رؤسائهم عن المرأة العاملة فى حقل الإعلام إذ يعتبرونهم أقل فى مستوى القدرات المهنية من زملائهم ولذلك يفضلون الرجال للمناصب القيادية والدورات التدريبية والمؤتمرات الدولية. كذلك كشفت الدراسات على الجانب الآخر عن افتقار معظم الإعلاميات العربيات إلى الوعى الثقافى والمجتمعى بقضية المرأة مما أدى إلى إسهامهن بوعى أو بدون وعى فى إعادة إنتاج القيم المعوقة للتطور. كما

لوحظ أن السياسات الإعلامية الخاصة بالمرأة والأسرة لم يطرأ عليها أية تغيرات إيجابية خلال فترة تولى القيادات النسائية لمواقع صنع القرار في الحقل الإعلامي (مقروءاً ومرئياً ومسموعاً) ورغم الاهتمام العالمى الذى تصاعد خلال العقدین الماضیین وانتقل من التأكيد على أهمية الالتفات لدور المرأة على التأكيد على أهمية الالتفات لرؤية المرأة عند رسم السياسات المختلفة سواء الإعلامية أو التعليمية أو بلورة التوجهات الثقافية فيما يتعلق بقضايا التنوير وإشاعة قيم حقوق الإنسان فى المجتمع والتي تشمل ضمن أمور أخرى قيمة المساواة الحقوقية فى إطار الاعتراف بالاختلاف بين الجنسين وإعادة تعريف مفهوم الخصوصية الثقافية الذى يستخدم على نحو يتضمن أحياناً إهداراً لحقوق المرأة من جانب بعض التيارات السلفية.

أما تجربتى الثانية فى الكتابة فقد كان مجالها البحث العلمى وامتدت عبر أربعة عقود تتلمذت خلالها على أيدي نخبة متميزة من الأساتذة والعلماء المصريين والعرب والأجانب وانتميت إلى المدرسة النقدية فى العلوم الاجتماعية وتمثلت أهم الصعوبات التى واجهتنى فى سيطرة التيار الوظيفى الأمبريقى على مختلف فروع العلم الاجتماعى (سياسة - اقتصاد - إعلام - قانون... الخ) وقد انتقل هذا التيار إلى الحقل الأكاديمى فى الإعلام والصحافة وشكل أنصاره عدد كبير من أشباه العلماء الذين تصدوا بضراوة للتوجهات النقدية وأصبحوا رافداً قوياً للسلطة القائمة حيث تم توظيفهم لتبرير سياساتها التعليمية والعلمية التابعة للغرب وأيديولوجية السوق مما أهدر الخصوصية المعرفية والثقافية للبحوث العلمية فى حقل الإعلام بل عطل نمو التيارات النقدية حيث تم تجاهل البحوث الأساسية والاستراتيجية فى هذا الحقل الهام مع الإستمرار فى الترويج لبحوث التسويق والإعلانات وتهميش وإقصاء الباحثين الممتنئين للتيار النقدى عن كافة المواقع القيادية فى الجامعة.

ولعل أبرز ما تحويه تجربة الكتابة البحثية ذلك العدوان الصارخ على الحريات الأكاديمية والتمن الفادح الذي دفعته بسبب كتابي عن الصحافة الصهيونية في مصر الذي صدر عام ١٩٧٩ وكشفت من خلاله الدور الذي قامت به الحركة الصهيونية في تحويل مصر إلى منبر للدعاية لما يسمى بالوطن القومي لليهود في فلسطين وتعرضت لسلسلة من الافتراءات لتشويه سمعتي العلمية داخل الجامعة ومنعى من السفر لحضور المؤتمرات الدولية فضلاً عن التهديدات التي تلقيتها من جماعة كاخ الصهيونية يحدروني من أنه (إذا لم تتوقفى عن الإساءة إلى الصهيونية سوف نخرسك إلى الأبد).

وقد استلهمت عدة دروس من هذه الدراسة التي كشفت لي بصورة جلية كيف أن الصحف الصهيونية في مصر كانت تحارب الصحف الوطنية المعادية للصهيونية بشن هجوم مكثف مستخدمه أخط الأساليب والتهم الأخلاقية بل واستعداء السلطات ضدهم متهمة إياهم بإثارة الفتنة الطائفية وتمزيق الوحدة الوطنية والإضرار بالقضية المصرية وهى نفس التهم التي واجهونا بها لدى المدعى الاشتراكي عندما قام السادات باعتقالنا عام ١٩٨١ لمعارضتنا اتفاقية الصلح مع إسرائيل.

وقد اتبعت الصهيونية العالمية نفس الأسلوب مع كورت فالدهايم السكرتير السابق للأمم المتحدة عندما ألصقت به تهمة التعامل مع النازية أثناء الحرب العالمية الثانية مما قضى على مستقبله السياسى في بلده (النمسا) وذلك عقاباً له على صدور قرار مساواة الصهيونية بالعنصرية عام ١٩٧٥ أثناء توليه منصب سكرتير عام الأمم المتحدة. ويمكن الاستشهاد بالعديد من الأمثلة سواء من واقع التجربة الصهيونية في مصر أو من داخل الكيان الصهيونى ذاته حيث تبرز قضية البروفيسور إيلان بابيه ومحاكمته وطرده من الجامعة العبرية بسبب موافقته على تسجيل رسالة

ماجستير للطالب تيودور كاتز عن مذبحة الطنظورة التي ارتكبها الجنود الصهاينة وراح ضحيتها المئات من الفلسطينيين عام ١٩٤٨.

ولقد تواصلت أشكال العدوان على حريتي الأكاديمية وتراوحت ما بين بث عيون الأمن داخل المدرجات وتسجيل محاضراتي التي واجهوني بها عند اعتقالي وبين حرمانى من تدريس بعض فروع التخصص التي لها مساس بالرأى العام.

السيرة الذاتية:

التجربة الثالثة فى الكتابة:

تحتل السيرة الذاتية مكانة مرموقة فى الثقافة العربية تبلغ حد التقديس فى السيرة المحمدية والتي تعتبر مصدراً من مصادر الشريعة وهى مصدر الهام السيرة الشعبية وإن تم فهمها وتفسيرها بأشكال مختلفة طوال التاريخ العربى. ولم يعرف الأدب العربى أدب السيرة الذاتية كما نعرفه اليوم إلا مؤخراً ويعتبر سلامة موسى أول من استخدم مصطلح السيرة الذاتية فى كتابه المعنون (تربية سلامة موسى). وقد تغير مفهوم السيرة الذاتية فى الأدب العربى نتيجة التأثير بالنصوص الغربية.

وإذا كانت السيرة الذاتية العربية قد استلهمت النوع الأدبى الغربى المشابه وتأثرت به إلا أن الكتاب العرب لم يستوردوا العقل الذى يقف خلف ذلك إن كان له وجود. لقد استلهموا الشكل السردى وتأثروا به. ويمكن القول أن الكتابة الذاتية العربية قد ارتبطت بالتطور الاجتماعى والثقافى فى العالم العربى وليس بالثقافة الغربية التى لم تكن سوى عامل مساعد. ولم يكن للطفولة دور يذكر فى السير الكلاسيكية فى الأدب العربى القديم ولكن كان يتم التركيز عليها فى النصوص الحديثة. أما مرحلة المراهقة فلم تحظى بالاهتمام سواء فى الأدب العربى أو الغربى حيث يتم التركيز على مرحلتى الطفولة والنضج وتغيب هذه المرحلة.

وعند قراءة حصاد السيرة الذاتية العربية سرعان ما نلاحظ أنها خرجت عن الصيغ المألوفة في التراث وكسرت ما هو مألوف وأصبحت السيرة تعبر عن أدب الاحتجاج الاجتماعي الملتزم وتعبر عن رؤية الكاتب للعالم المحيط به. وقد وضع في النصوص العربية الحديثة تأثير النصوص الأجنبية عليها ومحاکاتها في بعض الأحيان. ولذلك يشير بعض الكتاب لنصوص بعينها مثل اعترافات چان چاك روسو ومكسيم چوركى وتولستوى وسومرست موم وسارتر مما يشير إلى أن أثر الموروث في فن السيرة بدأ يتوارى ليحل محله النماذج الغربية. وتغلب تجربة الطفولة على عدد كبير من الأعمال كما تبرز الأيام لطف حسين في صدارة أعمال السيرة الذاتية وتعتبر مرجعاً أساسياً لكتاب السيرة الذاتية العرب. وقد لوحظ أن أغلب السير الذاتية العربية تركز على الجوانب العامة والسياسية ولا تملك الجرأة على كشف مكونات الواقع المجتمعي والحياة الخاصة بتشابكاتها وتعقيداتها وتناقضاتها التي لا تزال محكومة بقوة السلطة الاجتماعية التي تحول دون حرية البوح والإفصاح وسائر الصراعات بين الذات والآخر إذ أن جميع هذه الجوانب لا تزال مخبأة في صندوق أسود محكم الغلق لا يمكن الإفشاء به أو إعلانه مكتوباً ومدوناً ومعروضاً على الرأي العام وهنا تبرز إشكالية حدود العام والخاص لدى كتاب السيرة الذاتية وقد لوحظ مثلاً أن سيرة انديرا غاندى لم تتعرض لحياتها الخاصة واقتصرت على الجوانب السياسية فقط أما بابلونيرودا فقد غاص في دهاليز النفس والوجدان وحاول إخراج ما استطاع من أسرار وكوامن مذهلة في صدقها وتأثيرها وعندما حاول د. جلال أمين في سيرته الذاتية أن يعرض في اقتصاب بعض الجوانب الخاصة بقضية غرام والدته بابن خالها قبل زواجها من والده الدكتور أحمد أمين تعرض لنقد شديد من جانب الكثير من المثقفين مما يطرح بالحاح تساؤلاً جديراً بالتأمل ما هى حدود الحرية المسموح بها لكاتب السيرة الذاتية في عالمنا العربى فهو يواجه بخطوط حمراء وضعها المجتمع العربى بموروثاته الدينية وتقاليده الثقافية والاجتماعية والتي

يمكن أن تطيح بالقيمة المعرفية والأدبية لمضمون السيرة وكاتبها. كما تبرز عقبة أخرى أمام كاتب السيرة تتمثل في عدم تأهيله منذ الصغر لكتابة ما يمر به في حياته من أحداث وأشخاص مما يؤثر سلباً على الذاكرة بمرور الزمن وتوالي الأحداث فيأتي السرد منقوصاً ومفتقراً إلى الدقة والشمول.

هذا ويلاحظ أن كتابات السيرة الذاتية العربيات لم يبدأن في كتابة السيرة الذاتية كما هي معروفة حالياً إلا في وقت حديث نسبياً يرجع إلى أواخر الثلاثينات عندما كتبت بعض النساء مذكراتهن ولكن دون أى قصد أو هدف أدبي وعلى العكس من ذلك شهد الأدب العربي انفجاراً في كتابات المرأة العربية للسيرة الذاتية في السنوات الأخيرة.

لقد تراجعت في ذهني التساؤلات المحيرة قبل أن أفكر في كتابة هذه السيرة ما هو الهدف من كتابة السيرة الذاتية؟ هل هو السعى من أجل الحرية التي تتحقق من خلال الصراع مع أشكال السلطة المختلفة التي تتجسد أصلاً في الأسرة الأبوية ثم ترسخ في سائر مؤسسات المجتمع التربوية والسياسية والثقافية أم أن الهدف هو إلقاء الضوء بعيون الطفلة على خفايا أهلي المهمشين في الصعيد؟ أم الكشف عن المستور في مسيرة رفاق الطريق من الرجال والنساء سواء الذين ساندوني أو الذين غدروا بي؟!

وما أهمية الطفولة في السيرة الذاتية؟ وهل تمثل الطفولة بداية الوعي بالذات؟ أعلم أن الطفولة في مرحلة عمرية متقدمة هي محاولة لاستعادة زمن ولى ولا يمكن استعادته وإن السيرة بكل أشكالها تعبر عن الأنا والآخر في كافة صوره. كما أن التذكر في كتابه السيرة ليس تسجيلاً سلبياً وإنما عملية خلق مستمرة. على مدى العقدين الماضيين اربكني الحاح أساتذتي وأصدقائي وطلابي الذين لم يأسوا من حشني على الكتابة عن طفولتي في الصعيد وسائر الانحناءات والتعرجات التي

اعترضت طريقى منذ أن اعترضت أمى على مجئ للحياة رفضاً منها للاستمرار مع أبى ومنذ أن بادرنى خالى فى إحدى زياراته للقريه وكنت فى السادسة من عمرى وقال لى (أنت لسه مارحيتش المدرسه لغايه دلوقتى يظهر إنك حتفضلى جاهله شغلتك الخيز وحلب البقر مثل عمك حميده).

بدأت الفكرة تتبلور أثناء اعتقالى فى سجن النساء عام ١٩٨١ واكتملت فى اليابان ١٩٩١ خلال إحدى المؤتمرات التى شاركت فيها بعد حرب الخليج وشجعتنى صديقتى سانا سوزوكى أستاذة الأدب المقارن بجامعة طوكيو على كتابة سيرتى الذاتية قبل أن تلتهم آلة الزمن ذاكرتى فلا أستطيع أن أنقلها إلى أحفادى وأجيال الغد إذ قالت لى (لابد أن تخطى على الورق تجربتك الحياتية مع الناس الذين عبروا بك وعبرت بهم خلال الطفولة والصبا والشباب هؤلاء الذين أحبيتهم وانتميت إليهم وأولئك الذين سقطوا من حياتك هؤلاء الذين وثقوا بك واحتضنوا رعونتك وواصلوا معك الطريق وأولئك الذين يذروا الشك فى ثنايا نفسك وأهانوا الطفل القابع بداخلك وأخيراً الذين قسوا عليك - وأيقظوا روح التمرد والرفض ويسبق هؤلاء جميعاً أولئك الذين تعلمت منهم الكثير ولم يخلوا عليك بعلمهم وحكمتهم).

اقتنعت بما قالت لى الصديقة اليابانية سانا ولكن بعد عودتى للوطن استغرقتنى مشاغل الحياة ودواماتها المربكة وتقلباتها التى لا ترحم خصوصاً عملى الأكاديمى الذى مارسته بالتزام يصل إلى حد الشغف سواء فى التدريس أو البحث العلمى علاوة على التزاماتى الاجتماعية والإنسانية تجاه أهلى فى الصعيد ومشاركتى فى العمل العام السياسى والاجتماعى من ندوات ومؤتمرات ومظاهرات احتجاج. حاولت أن ألقى الضوء على طفولتى التى أمضيتها فى قرية الزرابى التى يحتضنها الجبل الغربى جنوب أسيوط والمعروف أن الصعيد عموماً قد عانى من التهميش

والتجهيل على مدى عقود طويلة والكثرة الغالبة من المثقفين والمنشغلين بالشأن العام لا يعلمون شيئاً عن دخائل الحياة وأسرارها ومآسيها في هذه البقعة من الوطن ويكتفون بالمعلومات السطحية المبتورة التي يستقونها من وسائل الإعلام والتي تقتصر على الأنشطة الرسمية والإنجازات الوهمية للحكم المحلي ولا يقتربون من القرى والنجوع التي تحفل بكم هائل من كفاح وصمود البشر المكبلين بالموثقات المعوقة لإرادة هؤلاء البشر وتطلعهم المشروع للنهوض وعلى الأخص ما تواجهه المرأة الصعيدية من قمع وحرمان من حقوقها الإنسانية يتواصل بثبات جيلاً بعد جيل. أردت أن أرصد ما تبقى في ذاكرتي داخل البيوت والدواوير التي شهدت طفولتي المبكرة واستندت إلى ما كانت ترويه جدتي الكفيفة صفصافة وأمي وخالاتي وعماتي عن خفايا وأسرار العلاقات المتشابكة والمصالح المتعارضة وجبروت التقاليد وقسوة وسطوة الرجال ولم أغفل على الجانب الآخر الجوانب المضنية والتي تتمثل في الأفراح القليلة والمواويل والأذكار والأغاني المشحونة بالشجن. حاولت أن أكشف عن روح الشهامة والنقاء والاستقامة الأخلاقية التي تكمن خلف أفئدة الجهامة والجمود التي تغلف وجوه أهلى في الصعيد.

لقد قدر لي أن يتزامن مولدي مع نشوب الحرب العالمية الثانية وعاصرت حرب فلسطين من خلال حكايات أُمى التي كانت تنقل لي ولشقيقي تفاصيل المعارك والمذابح التي ارتكبتها العصابات الصهيونية ضد الأطفال والنساء الحوامل في فلسطين. كما شهدت مولد ثورة يوليو ١٩٥٢ وانتميت إلى المواقف الوطنية والسياسات الاجتماعية للزعيم جمال عبد الناصر كذلك اكتويت بإخفاقاتها وانكساراتها خصوصاً هزيمة يونيو ١٩٦٧.

كما شغلت تجربة الاعتقال في سبتمبر ١٩٨١ موقعاً متميزاً في السيرة فلم اكتفى بسر دقائعها منذ وصولي بصحبة أبني إلى مطار القاهرة عائدة من مؤتمر دولي

عقدته الأمم المتحدة ببرلين عن التمييز العنصرى فى جنوب أفريقيا وفلسطين. وقمت بتسليم نفسى إلى شرطة المطار وذهب ابنى مع أبيه ثم تم ترحيلى إلى سجن النساء بالقناطر الخيرية كى الحق بالرفقات اللواتى سبقونى وهناك عشت الحياة المشتركة فى العنبر الذى ضم ١٠ معتقلات كانوا ينتمون إلى اليسار والجماعات الإسلامية وأمضيت مائة يوم ثم تم الإفراج عنا فى ١٢ ديسمبر ١٩٨١ بعد اغتيال السادات وتولى حسنى مبارك السلطة. وقد حرصت على أن أضم إلى هذه الوقائع حزمة من الأوراق سطرتها فوق جردل مقلوب بجوار حمام العنبر فى بعض الأمسيات ذات الضوء الخافت وقمت بتسريبها خارج السجن بمساعدة السجناء وبعض الأصدقاء. ولم تتوقف السيرة عند تجربة الانتخابات التى خضتها فى جنوب أسبوط عام ١٩٨٤. حيث أتاحت لى جولاتى الانتخابية فى قرى ونجوع الجبل الغربى فرصة نادرة للتعرف على تفاصيل زاخرة بالمرارة والتهميش وقسوة الحياة التى يحياها الفقراء فى صعيد مصر بل أضفت إليها فى إيجاز غير مغل بعض جولاتى فى قارات العالم الخمس حيث زرت ٥٢ دولة فى إطار المؤتمرات والدعوات العلمية واحتفالات الاستقلال الوطنى. وتوطدت خلالها علاقاتى بزعماء التحرر الوطنى الأفريقى مثل جوشوا نكوموا وسام نجوما ومانديلا وأوليفر تامبو ولومومبا وجومو كنيانا.

(١٥)

نحو خطاب إعلامى بديل عن قضايا العنف الأسرى

إذا كانت العولمة تسعى إلى خلق ثقافة كونية شاملة تغطى مختلف جوانب النشاط الإنسانى وتطلع إلى خلق الإنسان العالمى المبرمج ذى البعد الواحد المؤمن بأيدولوجية السوق العالمية والمتوحد مع مصالحها ورموزها وشعاراتها فإن ذلك ما كان ممكن أن يتحقق إلا بفضل الثلاثى التكنولوجى الصاعد الذى يعمل على تكامل وتناغم غير مسبوق. ويضم حسب ترتيب الأهمية كل من وسائل الإعلام السمعبصرى وشبكات المعلومات وشبكة الاتصالات اللاسلكية - وفى ضوء ذلك أصبحت الإمبراطوريات السمعبصرية (الفضائية والأرضية) هى المؤسسات التربوية والتعليمية الجديدة التى حلت مكان كل من الأسرة والمدرسة والتى تقوم بدور أساسى فى تلقين النشء والأجيال الجديدة المنظومة المعرفية المنزوعة من سياقها التاريخى والقيم السلوكية ذات النزعة الاستهلاكية حيث تقوم بتقديم معلمات ثقافية محكمة الصنع تتضمن منظومة جديدة من القيم تدور حول تشجيع النزعة الاستهلاكية وغرس قيم الأنانية والفردية والروح النفعية.

ونحاول فى هذا البحث الإجابة عن سؤال مركزى يدور حول رصد وتحليل اتجاهات الخطاب الإعلامى إزاء قضايا العنف الأسرى بهدف الكشف عن الدور الذى تقوم به وسائل الإعلام وهل تكتفى برصد أشكال وصور العنف الأسرى

والمجتمعى والسعى لتكريسه وتعزيزه أم تسعى وسائل الإعلام إلى طرح بدائل واقعية لتنوير أفراد الأسرة والمجتمع بكيفية التصدى لمواجهة جذور العنف وأسبابه. وقد تم الاستعانة في إطار النظرية النقدية بالمدخل الثقافى الاجتماعى أى تناول الخطاب الإعلامى في سياقاته المجتمعية والتاريخية بمنظور نقدى يبرز إيجابيات وسلبيات الخطاب الإعلامى إزاء قضايا العنف بكافة تصنيفاته أسرياً ومجتمعياً. ولا تقتصر الدراسة على الرصد والتحليل بل تحاول تقصى الأسباب الكامنة خلف مظاهر العنف مستهدفة تفسيرها وتقديم بدائل لتمكين صناع القرار الإعلامى والثقافى والاجتماعى والأسرى من تبنيها والالتزام بتطبيق الملائم منها.

وقبل أن نتطرق إلى رصد وتحليل اتجاهات الإعلام إزاء قضايا العنف الأسرى يجدر بنا أن نشير إلى حصاد الدراسات التى أجريت عن مواقف الإعلام المقروء والمرئى والمسموع من قضايا المرأة والأسرة في مصر والوطن العربى منذ حقبة السبعينيات وحتى نهاية العقد الأول من الألفية التالية ونوجزها على النحو التالى:

أولاً: تتباين الصور والرسائل الإعلامية التى تقدمها وسائل الإعلام المقروء والمسموع والمرئى عن المرأة والأسرة في مصر والعالم العربى فهى تتفاوت بتفاوت الصور والأنماط الاجتماعية المتنوعة والمتداخلة للأسر العربية فلا يوجد نمط واحد بل يوجد اختلافات واضحة بين الأسر الريفية والأخرى الحضرية والأسر المحافظة والأخرى المتحررة وتلك التى تعيش في ظل حضارات قديمة مثل مصر والعراق وبين أسر غنية ومتوسطة وفقيرة.

ثانياً: يغلب على الصور الإعلامية المقروءة والرئية الذكورية التى تركز تميز وسطوة الذكور حتى في المجالات التى تشارك فيها الإعلاميات والتى تهتم بقضايا المرأة والطفل.

ثالثاً: ينحاز الإعلام العربى للأسر الغنية والشرائح العليا من الطبقة الوسطى من سكان المدن وللقيم الفردية والمادية المدعمة للسلطة والثروة داخل الأسرة أكثر من قيم المساواة فى الحقوق والواجبات بين أعضاء الأسر ذكوراً وإناثاً وأجيالاً.

رابعاً: تتجاهل وسائل الإعلام العربية الاحتياجات الثقافية والاتصالية للأسرة العربية فى الريف والحضر فلا تخصص إلا فى النادر بريد للقارئ أو برامج للمستمعات والمشاهدات كما لا تنظم حملات إعلامية للتوعية الصحية أو البيئية أو للثقافة الأسرية للقطاعات النسائية المحرومة من هذه الخدمات.

خامساً: تتحكم الانتماءات الفكرية والثقافية للقيادات الإعلامية فى السياسات الإعلامية الخاصة بقضايا المرأة والأسرة. وقد لوحظ أن هذه القيادات لا تملك تصوراً محدداً إزاء هذه القضايا إذ يتأرجحون بين الاتجاهات الفكرية السلفية التى تؤمن بالمووروثات التاريخية وفكرة النقص الأنثوى وسيطرة النمط الأبوى وبين الاتجاهات المغتربة الوافدة. وقليل منهم يتبنى الاتجاه الاجتماعى المستنير وينعكس هذا الخليط الفكرى فى صورة تناقضات يعانى منها الإعلام الخاص بالمرأة والأسرة العربية.

سادساً: يركز الإعلام العربى على الأدوار الاستهلاكية للمرأة والطفل مستخدماً الإعلانات والأعمال الدرامية التى يتم توظيفها بصورة أساسية لإعلاء صوت الاستهلاك والفردية كقيمة عليا فى عصر العولمة حيث تتوارى قيم العمل والإنتاج والعمل الجماعى وتبرز قيم الإثراء السريع والقيم الربحية. وإن كان هذا لا ينفى وجود بعض الاستثناءات القليلة مثل مسلسل "ليالى الحلمية" و"الراية البيضاء". إلا أن الغالبية العظمى من البرامج والإعلانات تركز على قيم الرفاهية سواء فى أعياد الميلاد أو الزواج أو الوفاة مما يغرس أنهاطاً من السلوك الاستفزازى لدى الجمهور المتلقى.

سابعاً: لا يطرح الإعلام العربي رؤية متوازنة لأدوار ووظائف ومسؤوليات وحقوق كل من المرأة والطفل والرجل داخل الأسرة العربية بل يتجاهل الإشارة إلى واجبات ومسؤوليات الرجل ويركز على المسؤوليات والواجبات التقليدية للمرأة ويتعامل مع الطفل كحلية كمالية داخل الأسرة وليس باعتباره مشروع مستقبل للمواطن العربي.

ثامناً: يتجاهل الإعلام منظومة الموروثات الثقافية وما تتضمنه من رموز وقيم إيجابية تعلو من شأن المرأة وأدوارها الأسرية والمجتمعية الأمر الذي يعزز من صورة الذات السلبية لدى المرأة.

تاسعاً: يغلب على برامج الأطفال الإنتاج المترجم وتندر الأعمال الإعلامية المنتجة محلياً والتي تراعى خصوصية الطفل العربي واحتياجاته الثقافية مما يؤدي إلى اضطراب الأنساق القيمية لدى الأطفال العرب علاوة على تزييف وعيهم بواقعهم وهمومه وتحدياته.

الخطاب الإعلامي وقضايا العنف الأسري:

في ضوء المسح التحليلي للتراث العلمي الذي تناول اتجاهات الصحف والإعلام المرئي والمسموع إزاء قضايا العنف الأسري يمكن رصد الملاحظات التالية:

أولاً: الصحافة وقضايا العنف الأسري:

رغم الاهتمام النسبي الذي سجلته السنوات الأخيرة من جانب الصحف القومية والحزبية والخاصة إزاء قضايا العنف الأسري إلا أن معظم هذه المعالجات لا تزال تتسم بالطابع الموسمي والنمطي والتأرجح بين الاستنارة والمحافظة.

وتشير الدراسات إلى أبرز القضايا والمشكلات الأسرية التي طرحها الخطاب الصحفي تتمثل في العنف الأسري وحدوث فجوة عاطفية بين أطراف الأسرة الطلاق - عقوق وجحود الأبناء لأبائهم والانشغال بمتطلبات الحياة المادية وإهمال العلاقات الأسرية وجاءت المنفعة في مقدمة العلاقات بين الزوجين وبين الآباء والأبناء يليها الاحترام ثم الفتور والجحود. وتتمثل أهم القيم الإيجابية التي عكسها الخطاب الصحفي في إطار تناوله للعلاقات الأسرية في التعاون والاحترام أما أهم القيم السلبية فهي تتمثل في الانتقام - البخل - الخيانة - الغدر - جحود وعقوق الأبناء.

وتتميز السمات ونماذج السلوك التي تضمنها الخطاب الصحفي بغلبة الطابع السلبي بالنسبة للزوج حيث تم وصفه (بالخيانة - البخل - الفجور - الغيرة من نجاح الزوجة - حب التملك والسيطرة على الزوجة) ونسب إليه (تجاهل حقوق الزوجة والأولاد - ضرب الزوجة - قتل طفلته - ونسب للزوجة (الخيانة وقتل الزوج) كما نسب إلى الأبناء الجحود.

وقد دافعت الصحافة عن حقوق المرأة العاملة وأبرزت مظاهر العنف المجتمعي (الإداري والاقتصادي) التي تمارس ضدها خصوصاً من جانب مؤسسات القطاع الخاص كما نددت بالعنف الأسري ضد الفتيات وأشارت إلى أشكال العنف الجسدي المتمثلة في الختان وضرب الزوجات وإجبار الفتيات على الزواج المبكر وإكراه الزوجة على ممارسة العلاقة الزوجية وسائر مظاهر العنف الأسري التي يصعب إثباتها وتصدت الصحافة المصرية بالنقد لموقف الأزهر من قضية الختان خاصة الفتوى التي أصدرها مجمع البحوث الإسلامية بأن الختان مباح لمن تريد من الإناث رغم التأكيد على خطورة الختان من جانب الأطباء ورجال الدين.

وفي ضوء رفض الصحف لكافة مظاهر العنف الأسرى ضد المرأة فقد أرجعت أسباب انتشاره إلى تدهور الظروف الاجتماعية والاقتصادية إضافة إلى سيادة الموروث الثقافى والتفسيرات الذكورية للنصوص الدينية والتي تركز دونية المرأة.

وبالنسبة لمظاهر العنف الموجه من الدولة ضد المرأة فقد أشارت الصحف إلى عدة قضايا منها قضية غياب الرعاية الصحية للنساء الفقيرات وأكدت أن هناك ٧٥٪ من النساء المصريات فى الريف لا تتمتعن بالتأمين الصحى اللائق. فضلاً عن عدم عدالة التشريعات القانونية والتي تطبق على النساء ومنها قضية حبس المرأة الحامل وعدم قيام الدولة بتوفير الضمانات الكفيلة بتفعيل المشاركة السياسية والثقافية للمرأة.

واعتبرت الصحف ان الدولة والأحزاب مسئولين على قدم المساواة عن ضرورة رفع الظلم والتمييز الواقع ضد المرأة على صعيد مشاركتها السياسية. كذلك طرحت الصحافة قضية التمييز ضد المرأة فى القوانين والتشريعات الذى تمارسه الدولة ضد المرأة مثل التمييز القانونى بين الزوج والزوجة فى حالة القتل بسبب الخيانة فضلاً عن عدم وجود قانون يجبر الرجل على إجراء تحاليل النسب فى حالة وجود دعوى بذلك وتركها اختيارية للرجل مما يعد أحد مظاهر العنف ضد المرأة علماً بأنه يوجد ١٤ ألف قضية إثبات نسب لم يصدر بشأنها أحكام لغياب النصوص القانونية. وإذا كانت الصحف قد اهتمت بتسليط الضوء على بعض مظاهر العنف الموجه من الدولة ضد المرأة إلا أنها تجاهلت العديد من قضايا العنف التى تتعلق بالتمييز الحقوقى فى القوانين والمرتبات والأجور والمعاشات والتأمين الصحى وتولى المواقع القيادية. كما لوحظ أن الكاريكاتير الصحفى قد ركز على بعض مظاهر العنف النفسى والمعنوى الذى يمارسه الزوج ضد المرأة وأغفل صور العنف الأخرى مثل العنف الجسدى والعنف الاقتصادى. كما أتسمت العديد من الرسوم الكاريكاتورية بالتحيز الذكورى.

العنف في صحافة الأطفال:

تشير الدراسات إلى أن أكثر مجلات الأطفال نشرًا لصور العنف ورموزه على التوالي سوبر ميكي - ميكي - باسم - كابتن سمير - ماجد بينما كانت أقل المجلات نشرًا للعنف علاء الدين والعربي الصغير وقطر الندى. ولوحظ أن أغلب هذه المجلات سواء الأكثر تقدماً للعنف أو الأقل تعرضاً له تتبنى اتجاه الترغيب في العنف من منطلق أن له مبرراته التي تدعو لقبوله. وقد تبين أن أبرز المجلات التي تضمنت قصصها أعلى تكرارات العنف الواقعي تتمثل تنازلياً في باسم - سوبر ميكي - كابتن سمير - ماجد - علاء الدين. وبدأت أعلى تكرارات العنف القائم على المزج بين الواقع والخيال داخل مجلتى (ميكي) و(سوبر ميكي) تحديداً. وأتضح أن العنف الموجه ضد الآخر هو أكثر الأشكال شيوعاً في القصص المنشورة في مجلات الأطفال. وتشير الدراسات إلى أن أكثر المجلات تعرضاً للعنف الموجه ضد الأشياء هما سوبر ميكي، ماجد أما أكثرها تعرضاً للعنف ضد الحيوان كانت قطر الندى وباسم فيما كانت سوبر ميكي وماجد أكثرها تقدماً للعنف الموجه من المرء لنفسه كما بدأت باسم وسوبر ميكي وماجد أكثرها نشرًا للعنف الموجه ضد الآخرين. كذلك كشفت بعض الدراسات أن ممارسة العنف بهدف الإيذاء كانت الشكل السائد في أشكال العنف المقدمة للطفل خصوصاً في مجلات باسم وكابتن سمير وماجد وعلاء الدين. هذا وإذا كانت أكثر المجلات استخداماً لإطار الأعمال الإجرامية هما سوبر ميكي وباسم وماجد وكابتن سمير فإن مجلات علاء الدين وماجد وباسم وكابتن سمير ركزت أيضاً على إطار اللعب والمغامرات والمشابقات. وكانت أماكن الخلاء هي أبرز أماكن وقوع العنف شيوعاً بين القصص المنشورة في مجلات الأطفال ثم تلتها المنازل والشوارع وجاءت أماكن الخدمات العامة (المستشفيات - المطاعم - العيادات ... الخ) والأماكن الترفيهية كالملهى والسيرك والحدائق الخاصة والقصور في ذيل القائمة. وجاءت الدوافع

الاجتماعية على رأس الدوافع التي انطلق منها أصحاب العنف لممارسته وتمثلت في الدفاع عن النفس وعن الآخرين والمنفعة الشخصية والانتقام وسوء الفهم والدفاع عن الأرض. وجاءت الدوافع النفسية في المرتبة الثانية وتمثلت في الميل العدواني والضيق وإثبات الذات والغيرة والغضب. أما الدوافع الاقتصادية فقد جاءت في المرتبة الأخيرة وتمثلت في السرقة وتحقيق المكاسب المالية وتوفير المأكل واتسمت صور العنف التي نشرتها مجلات الأطفال بطابعي المبادرة وعدم وجود عقاب على اقتراف العنف.

قضايا العنف الأسرى في الإعلام المرئي والمسموع:

تنوعت قضايا العنف الأسرى التي قدمتها برامج التلفزيون المصري وتراوحت ما بين تعدد الزوجات والتعنت في استخدام الرجل لحقه في الطلاق خلافاً لموقف الشرع والفكر الدينى المستنير ومنظومة حقوق الإنسان.. وظاهرة ختان الإناث التي أدانتها جميع البرامج التلفزيونية واعتبرتها أحد مظاهر العنف ضد الفتاة المصرية. كما انتقدت أشكال العنف المختلفة التي تمارسها الأسر ضد الفتيات خاصة في المناطق الريفية وتمثل في إجبارهن على الزواج المبكر والحرمان من التعليم. ولوحظ أن العنف الأسرى المادى المتمثل في مشكلات النفقة وحضانة الأطفال وحق المرأة في إثبات نسب أطفالها بطرق التحليل العلمية الحديثة والمساواة الحقوقية أمام القانون وحق المرأة القبطية في الطلاق المدنى قد نالت اهتماماً متفاوتاً في البرامج التلفزيونية كما اجمعت هذه البرامج على أن أهم أسباب تزايد معدلات العنف ضد المرأة تعزى أساساً إلى إستمرار سيطرة الموروثات الثقافية المعادية للمرأة وغياب التشريعات القانونية المنصفة للمرأة إضافة إلى انتشار الفقر والبطالة والتفكك الأسرى واتساع الفجوة الطبقية ولكنها أغفلت الإشارة إلى سطوة التفسيرات السلفية للنصوص الدينية المتعلقة بالمرأة وحقوقها.

هذا وقد ركزت برامج الإعلام المسموع (الراديو) على موضوعات العنف المجتمعي ضد المرأة فيما تم تهميش موضوعات العنف المادي والجسدي. إذ احتل العنف المجتمعي المرتبة الأولى من كافة أشكال العنف السائدة التي تناولتها برامج الراديو تلاه العنف الأسري أما عنف الدولة الموجه للمرأة فقد احتل المرتبة الأخيرة. واندرج تحت العنف الأسري العديد من ظواهر التمييز ضد المرأة مثل التعسف في استخدام الطلاق وخطورة تعدد الزوجات ولم يخرج عن هذه المنظومة سوى بعض البرامج في إذاعة القرآن الكريم التي أكدت أن الرجال قوامون على النساء. وفي إطار العنف الجسدي ناقشت البرامج الإذاعية قضايا العنف البدني وكره الفتيات على الزواج المبكر وختان الإناث كما تناولت المشكلات الخاصة بقضية النفقة. وقد احتل العنف اللفظي في العلاقة بين المرأة والرجل المرتبة الأولى في الدراما المصرية يليه العنف المادي ثم الاثنان معاً. وحظى أسلوب العنف البدني المرتبة الأولى من إجمالي أساليب العنف المستخدمة بين الرجل والمرأة يليه الصوت العالي والصراخ ثم الإهانة والسب وأخيراً التهديد بالإيذاء. واحتلت العلاقة الزوجية المرتبة الأولى من إجمالي العلاقات التي يحدث فيها عنف بين المرأة والرجل وتلاها علاقة العمل ثم العلاقات العاطفية. ولم تهتم الدراما التلفزيونية بالكشف عن معاقبة مرتكب العنف كما لم تهتم بإبراز آثار العنف في العلاقة بين المرأة والرجل في حين أبرزت إثارة النفسية وإثارة العضوية مثل الإصابات البدنية. وكانت المسلسلات أكثر الأشكال الدرامية تصويراً للتأثيرات النفسية الناتجة عن العنف في حين جاءت الأفلام العربية أكثر تصويراً للإصابات البدنية.

وجاء الذكور في مقدمة مرتكبي العنف في الدراما يليهم الإناث كما احتل المتعلمين المرتبة الأولى يليهم غير المتعلمين في ارتكاب العنف ولكن كانت الإناث من مرتكبات العنف من غير المتعلمات أكثر من الذكور خصوصاً من ربات البيوت تليهم الحرفيات والراقصات ثم الموظفات في حين حظى بالمرتبة الأولى ذوى

الأعمال الحرة من الذكور ومن الذين ينتمون إلى مستوى اقتصادى مرتفع. كذلك احتل المتزوجون الصدارة في قائمة مرتكبي العنف يليهم العزاب ثم الأرامل والمطلقات. وبالنسبة للمرحلة العمرية كان الشباب في المقدمة يليهم الناضجون ثم الشيوخ واحتل ضحايا العنف في العلاقة بين المرأة والرجل من الإناث المرتبة الأولى يليهم الضحايا من الذكور كما جاء المتعلمون تعليماً عالياً والمنتمون إلى مستويات اقتصادية واجتماعية منخفضة في مقدمة ضحايا العنف يليهم الحرفيين ثم الموظفين والمهنيين.

وفىما يتعلق بالإعلام المرئى والإعلانات وتأثيرها على الطفل المصرى لوحظ أن بعض المسلسلات التليفزيونية تطرح العديد من الأنماط السلوكية الضارة التى تؤدى إلى تشويه أفكار الطفل تجاه نفسه وتجاه الآخرين حيث ارتبطت بالمكانة المادية للشخصيات المحورية فى المسلسلات والنابعة من مصادر غير مشروعة للحصول على المال مع التقليل من قيمة العلم فى المجتمع وعجزه أمام المغريات المادية الهائلة إذ كشفت عن أن المكانة العلمية التى حصلت عليها بعض هذه الشخصيات المحورية لم تعصمها من السقوط والانحراف بغية تحقيق الأطماع المادية المختلفة. ولم تقدم المسلسلات التليفزيونية الطفل باعتباره أحد أطراف الأسرة فى الواقع الاجتماعى بل ركزت المسلسلات بصورة متكررة على الأب والأم والأبناء وهم فى سن الشباب وأظهرت الدراما قوى الخير فى المجتمع بصورة تتسم بالضعف والاستسلام أمام قوى الشر السائدة فى مجمل العلاقات الأسرية والاجتماعية وتصدر العدوان اللفظى قائمة العنف المستخدم فى الصراع بالمسلسلات التليفزيونية وبرزت دوافع هذا العنف بسبب الفقر ثم التفكك الأسرى ويليها مشاعر الحقد البشرى. وبالنسبة للإعلانات المرئية التى استهدفت تعظيم الرفاهية الاقتصادية والاجتماعية والمعنوية للمستهلك فى ظل ظروف اجتماعية - اقتصادية غير مواتية مما يمكن أن يغرس فى الطفل مشاعر الإحباط ويدفعه إلى الانحراف

السلوكى خصوصاً في ظل تركيز هذه الإعلانات على مشاهد الضرب واستخدام الأسلحة ومحاولات للقتل المستترة من الأفلام علاوة على تقديم السلوكيات اللفظية والحركية المبتذلة.

كذلك تشير الدراسات إلى خطورة الدور الذى يلعبه الكارتون التلفزيونى فى تكوين الاتجاهات العدوانية لدى الأطفال خاصة فى ظل العرض المستمر لأفلام الكارتون الأجنبية المستوردة التى تختلف ثقافياً واجتماعياً عن السياق المجتمعى العربى والمصرى وتكمن خطورتها فى تركيزها على تحقيق الربح والمنفعة الفردية بكافة الوسائل وتأثيرها السلبى على الطفل المصرى فى ظل غياب القدرة على إنتاج فيلم كارتون عربى.

الجمهور والعنف الإعلامى:

كشفت الدراسات عن أن الجمهور العام كان هو المستهدف الأساسى لكافة الكتابات الصحفية والبرامج التلفزيونية والإذاعية التى تناولت قضايا العنف وبلى ذلك المرأة كجمهور مستهدف وتأتى الأسرة فى المرتبة الثانية. أما الرجال والأطفال فقد جاء ترتيبهم فى ذيل قائمة الجمهور المستهدف وكذلك الجمهور النوعى والشباب وهذا يعد تقصيراً ملحوظاً فى الدور التوعوى الذى تقدم به وسائل الإعلام تجاه كل من الأسرة والمجتمع معاً. وعندما نتأمل بنية الجمهور المستهدف من المعالجات الإعلامية لقضايا العنف الأسرى نلاحظ أن الجمهور العام الذى ينتمى إلى الشرائح العليا من سكان العواصم قد شغل المرتبة الأولى فيما لم ينل جمهور المناطق الريفية والشعبية سوى اهتمام ضئيلاً وموسمياً وعلى الأخص أهالى صعيد مصر. ويلاحظ أن كل من الجمهور العام والنوعى والشباب قد احتل المرتبة الأولى فى المعالجات الصحفية التى تناولت العنف الأسرى ثم يليه التلفزيون وأخيراً الإذاعة ويختلف الأمر بالنسبة للمعالجات الموجهة للشباب فقد تراجعت المعالجات

التليفزيونية للمرتبة الأخيرة كما يلاحظ أن الصحافة قد أولت اهتماماً نسبياً إلى الجمهور في المناطق الشعبية والريفية والبدو دون غيرها من الوسائل الإعلامية الأخرى. أما الإذاعة المصرية فهي الوحيدة التي أولت بعض الاهتمام إلى الجمهور في صعيد مصر، وتشير الدراسات الميدانية للجمهور التي تناولت اتجاهات الأطفال إلى أن المشاهدة المتكررة من جانب الأطفال لمشاهد العنف في المسلسلات العربية قد أصابهم بنوع من الجمود العاطفي واللامبالاة. كما ارتفعت نسبة محاكاة الطفل للسلوكيات العدوانية التي يشاهدها في المسلسلات التليفزيونية مثل العراك بالأيدي وترديد الألفاظ الخارجة عن الأدب وانتشار ذلك بين أطفال الأحياء الشعبية وأطفال الحضر عن أطفال الريف كما أشار الأطفال الذين خضعوا للدراسات الميدانية إلى أن امتناع آبائهم عن تلبية رغباتهم من السلع التي يشاهدونها في الإعلانات التليفزيونية يولد لديهم شعوراً بالحزن والتوتر والإحباط. وفي إطار مسح التراث العلمي الخاص بالدراسات التي أجريت عن اتجاهات الجمهور النسائي والرجال أيضاً إزاء المعالجات الإعلامية لقضايا العنف الأسرى لوحظ غياب هذا النوع من الدراسات.

نحو خطاب إعلامي بديل عن العنف الأسرى:

تأكيداً للنتائج التي توصلت إليها الدراسات السابقة عن الإعلام وقضايا العنف الأسرى وسعيًا للإجابة عن السؤال المركزي الذي طرحناه في صدر هذه الدراسة تم استخلاص مجموعة جديدة من الحقائق والاشكاليات التي تحدد ملامح الدور الذي تقوم به وسائل الإعلام المقروءة والمرئية والمسموعة في رصد وتحليل قضايا العنف الأسرى وأسبابها وتداعياتها. وفي ضوء تحليل هذه النتائج وتفسيرها في إطار السياق الثقافي والاجتماعي والسياسي والاقتصادي للمجتمع المصري كان من الضروري تصميم رؤية مستقبلية تستهدف تغيير الوضع الراهن للأسس

المعرفية للمفهوم السائد عن العنف وتصحيح مسار الاتجاهات الإعلامية إزاء قضايا العنف الأسرى وذلك في إطار المستجدات المتوقعة بالنسبة للسياسات الرسمية ومدى فاعلية منظمات المجتمع المدني والتغيرات المحتملة بالنسبة للمنظومة الإعلامية. وفي ضوء استعراضنا لأنماط الدراسات المستقبلية والتي تشمل كل من النمط الحدسي والاستطلاعي والاستهدافي ثم نمط النماذج الكلية. استقر الرأي على اختيار النمط الاستهدافي الذي يسعى إلى إنجاز التغير بصورة عمدية ولا يترك الظاهرة المدروسة لإيقاع التغير التقليدي الذي يتسم بالبطء والعشوائية بل يبدأ برسم الصورة المستقبلية المرغوبة في إطار ما يسمى بشجرة العائلة وينطلق التصور المستقبلي من الاتجاهات الراهنة للإعلام المصري إزاء قضايا العنف الأسرى الذي كشفت الدراسة عن ملاحظتها الأساسية ثم يحاول استشراف الأفق المستقبلي للاتجاهات الإعلامية إزاء العنف الأسرى واضعاً في الاعتبار ما يمكن أن يطرأ على هذه الاتجاهات من متغيرات إيجابية وسلبية في سياق منظومة الأوضاع الثقافية والمجتمعية السائدة.

وبناء على ما سبق يمكن طرح التصورات والبدائل المستقبلية التالية:

أولاً: تغيير المفاهيم السائدة عن العنف الأسرى والمجتمعي باعتباره وسيلة فعالة وطريقة مثلى لحل المشكلات ومتنفس صحي لهوموم النفس البشرية وإحلال مفاهيم جديدة عن العنف. فقد أكدت الدراسات النفسية والاجتماعية أن العنف ليس الوسيلة الفعالة لعقاب الأفراد بل هناك أساليب عقابية أكثر فاعلية كالعقاب الإيجابي أو السلبي لمن يرتكب خطأ ما وليس هو الطريقة المثلى لحل المشكلات بل يجب تنمية قدرات الفرد على حل الصراعات من خلال تعليم فن التفاوض الذي أصبح فرعاً متميزاً من فروع المعرفة العلمية وله قواعده وآلياته التي تستبعد اللجوء للعنف. كما أن العنف ليس المتنفس الصحي لما يعترى النفوس من هموم وضغوط

بل هناك مجالات عديدة للتنفيس مثل الأدب والفن والرياضة والأنشطة الاجتماعية والعلمية وغيرها من المجالات الإيجابية المفيدة للفرد والمجتمع. ولا شك أن عملية الإحلال والإبدال يجب أن تبدأ في إطار التنشئة الاجتماعية الأسرية والتعليمية للأطفال في البيوت والمدارس والأندية ومنظمات المجتمع المدني وهنا تبرز ضرورة نشر وبث المفاهيم البديلة عن العنف من خلال البرامج المرئية والمسموعة والمسلسلات والدراما والإعلانات.

ثانياً: تعديل المفاهيم السلبية غير المنصفة السائدة عن المرأة ويتحقق ذلك بمواجهة الموروثات الثقافية التي تكرر النظرة الدونية للمرأة والسعى لتغيير المفاهيم والتصورات السائدة لدى كل من الرجال والنساء في المجتمع المصري عن كون المرأة مجرد أنثى لا تصلح إلا للمتعة وخدمة الأسرة ورعاية الزوج والأطفال فقط والنظر إليها على أنها كائن اجتماعي كامل الأهلية وليست الطرف الأدنى في علاقة الشراكة الأسرية والمجتمعية وتتطلب هذه المواجهة جهداً جماعياً متواصلاً يشارك فيه علماء الاجتماع والتربية ورجال الدين المستنيرين والمبدعين من الأدباء والفنانين ويتوج هذا الجهد الكتاب والمثقفين وجموع الإعلاميين والصحفيين من الرجال والنساء من خلال المقالات والكاريكاتير والدراما والمسلسلات وسائر البرامج المرئية والمسموعة.

ثالثاً: تعديل المفاهيم الذكورية السائدة عن منظومة الحقوق والمسؤوليات داخل الأسرة المصرية ويتحقق ذلك من خلال الحملات الإعلامية التي تسعى إلى توعية الآباء والأمهات والأطفال بأصول وفنون الممارسة السوية للعلاقات الأسرية وعدم احتكار القرارات الأسرية من جانب الآباء والأمهات واستبعاد الأساليب القمعية للأبناء التي تؤدي إلى تراكم الكبت وتداعياته السلبية. مع التأكيد على ضرورة ترسيخ الالتزام بقيم المساواة والمشاركة والاحترام المتبادل تحقيقاً للتوازن

الأسرى. ويتحقق ذلك من خلال حملات إعلامية متواصلة تستضيف علماء النفس والاجتماع والمهتمين بقضايا الأسرة ومن خلال الدراما والمنوعات والمسلسلات وبرامج المرأة والأسرة.

رابعاً: تفعيل منظومة الحقوق الأساسية للأسرة المصرية وفي قلبها الحقوق التي تسعى المرأة من أجل الحصول عليها واستكمالها، وتتمحور حول ما يلي:

أ- حق التحرر من الفقر والإفقار في ضوء ارتفاع نسبة الفقر والإفقار بين السواد الأعظم من المجتمع المصري خصوصاً في الريف وتستهدف الرؤية المستقبلية القضاء على الفجوة والتمييز بين الإناث والذكور في امتلاك الأصول الاقتصادية وإدارتها مع السعى الجاد لتفعيل حق المرأة في الميراث طبقاً لما أقرته الشرائع الدينية والقوانين الوضعية وإقرار حقوق جميع أفراد الأسرة في حياة كريمة آمنة اقتصادياً.

ب- حق الفتاة في التعليم في ضوء ارتفاع نسبة الأمية بين النساء في الريف والمناطق الشعبية والعشوائيات ويتحقق ذلك من خلال جهود مجتمعية متكاملة تسعى للقضاء على الفجوة لتعليمية بين الإناث والذكور من خلال تفعيل سياسات وبرامج محو الأمية وتعليم الكبار خصوصاً النساء ودعمها من منظمات المجتمع المدني وتحفيز رجال الأعمال والمستثمرين للإسهام في القضاء على مستوى الأمية المرتفع بين الفقراء علاوة على الدور الحيوى الملقى على عاتق الإعلام المركزى والاقليمى في القضاء على مشكلة الأمية بتخصيص حملات إعلامية متواصلة لتغيير الموروثات الثقافية وإزالة العوائق الاقتصادية والاجتماعية التي تكرر الأمية بين جموع النساء الريفيات والفقيرات.

ج- الحق في العمل لجميع القادرين من النساء والرجال خصوصاً الشباب والنساء في ضوء إنتشار البطالة بين الشباب وانخفاض نسبة المشاركة النسائية في

قوة العمل الرسمية خصوصاً في محافظات الصعيد بسبب سطوة العادات والتقاليد. إذ تشير الدراسات إلى أن عمل المرأة لم يغير من مكانتها الأسرية والاجتماعية فضلاً عن استسلامها للرؤى السلفية المتحيزة للذكور ونظراً لأن الجهد المنزلي للمرأة لا يتم تقييمه اقتصادياً والذي لا يقل عن الجهد الذي يبذله الرجل في العمل المدفوع الأجر، ومن هنا يأتي السعي من أجل إقرار حق المرأة في الحصول على عائد جهدها سواء داخل المنزل أو خارجه والتأكيد على أهمية تأهيلها وتدريبها وتنمية قدراتها وتأسيس نظام للتأمينات الاجتماعية والصحية للمرأة العاملة خاصة في القطاع غير الرسمي وحمايتها من سوء استغلال جهدها في هذا القطاع سواء فيما يتعلق بمساواتها في الأجر والمعاش ورعاية الطفل أو حمايتها من أخطار التحرش الجنسي الذي قد تتعرض له. وهنا يبرز دور الإعلام في تغيير الثقافة السائدة لدى كل من الرجال والنساء حول عمل المرأة وقصر أهميته على العائد الاقتصادي فقط والتأكيد على أهمية مشاركتها في تنمية المجتمع من خلال تشجيع انخراطها في كافة مجالات العمل المهني والحرفي. ويتحقق ذلك بتخصيص حملات إعلامية لإبراز الفوائد الاجتماعية والاقتصادية والأسرية المترتبة على مشاركة المرأة في الدورات التدريبية والبرامج التنموية في مجالات التعليم والصحة والمهن الزراعية والطبية والمهن الالكترونية والتكنولوجية الحديثة ورعاية الأيتام والمعوقين والمسنين. ولعل أخطر ما سيقوم به الإعلام في هذا الصدد السعي لتحرير المرأة من مفهومها عن العمل وأهميته بالنسبة لها كإنسانة كاملة الأهلية. وباعتبارها عضو فاعل داخل الأسرة.

د- الحق في الرعاية الصحية المتكاملة لجميع أفراد الأسرة رجالاً ونساء وأطفال وهنا تبرز ضرورة رفع الوعي المجتمعي بالمشكلات لصحية التي تعترض حياة المرأة في مختلف مراحلها العمرية والتي تتمثل في الزواج المبكر والختان وانعدام رعاية الحوامل وغياب خدمات تنظيم الأسرة في المناطق النائية

والعشوائيات وانتشار الاستعانة بالوصفات الشعبية واللجوء إلى السحر والشعوذة لعلاج الأمراض المزمنة. وفي ضوء ذلك تبرز المسؤولية الاجتماعية للإعلام المرئي والمسموع على الأخص بالإضافة إلى أساليب الاتصال الشخصي على نشر التوعية الصحية والبيئية لدى كافة شرائح المجتمع مع التركيز على المرأة وتخصيص حملات إعلامية متواصلة موجهة لكل من النساء والرجال والأطفال تستهدف رفع وعيهم بحقوقهم الصحية والبيئية وتوعيتهم بأساليب الرعاية الصحية السليمة.

هـ - الحق في الإنصاف القانوني للمرأة المصرية التى تعاني من التمييز القانوني في قوانين الأحوال الشخصية وبعض القوانين الأخرى مثل القانون الجنائي والمدني والتي تهدر حقوقها الأسرية وحقوقها كمواطنة كاملة الأهلية وتعد هذه الحقوق من المحظورات التي لا تقترب منها الإعلام إلا نادراً. إذ رغم التعديلات الطفيفة التي طرأت على قوانين الأسرة مثل قانون الخلع للالتفاف حول الحق المطلق للزوج للموافقة على الطلاق ورفع سن الحضانة للأطفال في حالة الطلاق ولكن لا تزال معظم البنود الأساسية في قانون الأحوال الشخصية كما هي لم تتغير خصوصاً ما يتعلق بوضع كافة الصلاحيات في يد الرجل مثل العصمة والطلاق وحضانة الأطفال وهنا تطف الموروثات الثقافية المنحازة للرجل كعقبة كثوود ضد أى محاولات للتغيير الأمر الذي يتطلب تضافر الجهود التربوية والتشريعية والإعلامية لتغيير هذه الأوضاع الجائرة بالنسبة للمرأة والسعى من أجل تحقيق الإنصاف الأسرى والمجتمعي والتشريعي للمرأة.

خامساً: تحديد الجمهور المستهدف: تقع مسؤولية هذا الجانب على القيادات الإعلامية إذ يتعين عليهم تحديد الشرائح الاجتماعية التي سيتوجهون إليها بالخطاب الإعلامي عن الأسرة وقضايا العنف وهل يتوجه خطابهم إلى الجمهور العام (رجال ونساء) أم إلى الجمهور النوعي (نساء أو أطفال أو رجال) وفي هذه

الحالة هل يركز الخطاب على قضايا العنف الأسرى في الريف أم الحضر أم الاثنين معاً. لقد كشفت الدراسات عن غياب الأسرة الريفية عن أجندة الإعلام المصرى وتصحيحاً لهذا الوضع يطرح التصور المستقبلى ضرورة التزام الإعلام بتحديد الجمهور المستهدف قبل تصميم الرسالة لإعلامية التى تتضمن بعض أحداث العنف ومراعاة عدم اقتصرها على المرأة فقط وعدم تركيزها على قضايا العنف فى الأسر التى تعيش فى العواصم والمدن الكبرى.

سادساً: تحديد مضامين الخطاب الإعلامى البديل: فى ضوء الخطاب الإعلامى الراهن الذى يركز على المرأة وحدها وكأنها المسئولة الوحيدة عن الأمرة تبرز ضرورة تصميم خطاب إعلامى بديل يتوجه إلى جميع أفراد الأسرة المرأة والرجل والأطفال يطرح مشاكلهم ويناقش علاقاتهم الأسرية والاجتماعية ومسئولياتهم وحقوقهم فى إطار أشمل من الإطار الإعلامى الراهن. وقد طرحت الدراسات التى أجريت عن اتجاهات الجمهور النسائى والأطفال إزاء مضامين الصحف والبرامج التليفزيونية التى عالجت قضايا العنف الأسرى والمجتمعى بعض الاقتراحات التى يجب مراعاتها عند تصميم الخطاب الإعلامى البديل وتتمحور هذه الاقتراحات حول ما يلى:

أ- فيما يتعلق بمشكلات العنف بين الرجل والمرأة ضرورة الإقلال من تصوير العنف فى الدراما التليفزيونية كى لا يعتاد عليه المشاهدون ويعتبرونه سلوكاً طبيعياً ومقبول اجتماعياً مع التركيز على استهجان العنف وإبراز آثاره السلبية على الفرد والمجتمع.

ب- أهمية أن يتضمن صور وأحداث العنف العقاب الرادع وإبرازه بوضوح فى الكتابات والتحقيقات الصحفية ورسوم الكاريكاتير والقصص الموجهة للأطفال.

ج- التركيز على مضمون القصص للفيلم الكارتونى مع ضرورة الاهتمام بإدراج تعليق صوتى لمصاحب لعرض أفلام الكارتون يتضمن نقد وتفنيد السلوكيات العنيفة وإبراز مخاطرها مع مراعاة التدقيق فى اختيار الشخصيات القائمة بإجراء التعليق بانتقائها من الشخصيات المحببة للطفل كى تضمن جذب اهتمام الطفل ومتابعته للتعليق الذى قد يقلل من أثار العنف المقدم من خلال أحداث الكارتون التلفزيونى.

د- الإكثار من الرسوم المتحركة فى الإعلانات الموجهة للأطفال مع استخدام الأساليب الفكاهية والابتعاد عن مشاهد العنف اللفظى والحركى.

هـ- ضرورة الاهتمام بتقديم نماذج الآباء والأمهات فى المسلسلات بصورة جيدة وسوية وإبراز شخصية الرجل والمرأة على أسس متكافئة.

سابعاً: تصور بديل لأدوار لإعلاميين والإعلاميين: فى ضوء التحديات المهنية والاجتماعية التى تواجه الإعلاميين والصحفيين فى مصر والتى تؤثر بصورة سلبية على أدائهم المهنى ومسئولياتهم الثقافية والتى ترجع أغلبها إلى افتقارهم للثقافة المجتمعية وضآلة وعيهم بالأبعاد الاجتماعية والنفسية للعنف المجتمعى والأسرى وبطبيعة وسمات واحتياجات الجمهور المستهدف فى الريف والحضر فى ضوء هذه المعطيات يبرز التصور البديل الذى يقضى بضرورة إعادة تثقيف وتدريب الإعلاميين والإعلاميات فى إطار منظومة متكاملة تكفل لهم الوعى المهنى والالتزام المجتمعى والاستيعاب العلمى لقضايا العنف الأسرى والمجتمعى.

ثامناً: بحوث إعلامية بديلة عن العنف الأسرى: فى ضوء قلة البحوث الإعلامية والاجتماعية عن قضايا العنف وتصنيفاته وأسبابه وتداعياته السلبية على الأسرة والمجتمع فضلاً عن انتشار المفاهيم الوظيفية المبثورة والمعزولة عن سياقاتها الاجتماعية والتاريخية والمستمدة من تراث العلم الاجتماعى فى الجامعات الأوربية

والأمريكية علاوة على إغفال البحوث التطبيقية والميدانية التي تتناول العوامل المجتمعية المرتبطة بالعنف وتفاعلاتها وعلاقتها بوسائل الإعلام تأثيراً وتأثراً. في ضوء كل ذلك يبرز النموذج البديل الذي يستلزم تصميم استراتيجيات بحثية جماعية تضم علماء وأساتذة العلوم الاجتماعية وتتولى إعداد أجندة بحثية بديلة بالتعاون مع أساتذة الإعلام.

(١٦)

هل تحققت المواطنة الإعلامية للمرأة؟

رغم صدور الاستراتيجية الإعلامية للمرأة العربية ٢٠٠٩-٢٠١٥ والتي ركزت على مطالبة وسائل الإعلام بالبعد عن التركيز على الصور النمطية السلبية للمرأة والحرص على إبراز إنجازاتها المعاصرة ودورها في المجتمع. ولكن النداءات والمطالبات الموجهة إلى وسائل الإعلام العربية من جانب الحكومات ومنظمات المجتمع المدني لم تسفر سوى عن تعديلات شكلية محدودة في السياسات الإعلامية الخاصة بصورة المرأة وقضاياها.

ويشير المشهد الراهن إلى وجود أربع تيارات فكرية تتحكم في السياسات الإعلامية العربية تجاه المرأة وقضاياها وهي:

١ - التيار السلفي التقليدي الذي يستمد مشروعه من الموروثات الثقافية والتفسير الذكوري المتحيز للأديان الذي يرفع من شأن الرجل على حساب المرأة. والمعروف أن الثقافة الدينية في التاريخ العربي الإسلامي لا تحيل إلى النصوص الدينية المقدسة بل تركز على التأويلات والتفسيرات التي انجزت حول محتوى هذه النصوص التي صيغت في عصور زمنية سابقة وفي إطار أوضاع مجتمعية تختلف معطياتها واشكالياتها عن الزمن الراهن ولكن لا تزال صياغتها وتجلياتها المختلفة تشكل الذاكرة والجماعية في المجتمعات العربية. كما تحيل الموروثات الاجتماعية إلى التقاليد التي تم ترسيخها للمحافظة على النظام الأسري والمجتمعى المتوارث

والذي لا يزال سائداً ويتميز بالطابع الأبوى الذكوري. إذ كانت أولوية الرجل مرجحة دوماً في الآراء الفقهية المتصلة بالمرأة وهي أولوية حصنت نفسها بقراءة للقرآن الكريم يغلب عليها طابع الإنحياز للرجل. ولكن ذلك لم يحل دون ظهور تفسيرات مستتيرة تستهدف إنصاف المرأة ولكنها قليلة ومغيبة في الذهن الجمعي والسلوك الاجتماعي تجاه المرأة وحقوقها.

٢- التيار الاجتماعي التحرري الذي يرجع إلى دعوات الرواد أمثال رفاة الطهطاوي وقاسم أمين والطاهر حداد وخير الدين التونسي وعبد الرحمن الكواكبي الذين نادوا بضرورة تحرير المرأة وإرساء حقها في التعليم والعمل ضمن حركة الأحياء القومي.

٣- التيار النسوي الوافد من الغرب الذي يمحصر قضية المرأة في إطار معزولة عن حركة المجتمع ويدعو إلى تحطيم النظام الأبوي.

٤- التيار العولمي الذي يستفيد من المرأة كعنصر إستهلاكي ومادة إعلانية جذابة وكقوة عمل رخيصة غير مؤمنة. لقد انعكست هذه التيارات على مواقف الإعلام العربي من المرأة ولا تزال الغلبة للتيار السلفي التقليدي ويستثمر التيار العولمي مقولات التيار السلفي ويكرسها. أما التيار الاجتماعي التحرري الذي يعبر عن نفسه في الجهود الدولية المعاصرة التي تنادي بضرورة تمكين المرأة من الحصول على حقوقها المجتمعية من خلال إدماجها في كافة الأنشطة السياسية والاقتصادية والثقافية لا يزال هذا التيار يجاهد كي ينتزع لنفسه وموقعاً لائقاً في الإعلام المقروء والمرئي والمسموع.

ولا شك أن الصورة النمطية للمرأة العربية في وسائل الإعلام لا يمكن تصحيحها فحسب بالقوانين والتشريعات التي ظلت حبراً على ورق دون تفعيل حقيقي إذ أن مسؤولية التغيير لا تقع فقط على المرأة بتحرير صورة الذات لدى المرأة

وتحريرها من تركة الاستضعاف التاريخية التي تم ترسيخها عبر أجيال عديدة وشكلت طوقاً اجتماعياً يحاصر وينال من انجازاتها في كافة المجالات المجتمعية. ولتحقيق ذلك لابد من إيجاد الآليات الكفيلة لتمكين المرأة من تغيير صورتها الذاتية من خلال تفعيل حقوقها الأسرية والمؤسسات التربوية والتعليمية والثقافية ثم يأتي دور وسائل الإعلام أما التشريعات القانونية يجب أن تأتي في نهاية المطاف لتقنين التغيير ويعتمد تفعيلها على منظمات المجتمع المدني وليس على الحكومات. كما يرتهن التغيير أساساً ضرورة تغيير الأوضاع المعيشية والمجتمعية للمرأة العربية فالأطر القانونية ليست سوى آليات مكملّة. ومن أجل تحقيق هذه الهدف تبرز مجموعة من الضرورات تنصدها.

١- ضرورة السعي لإعداد استراتيجية قومية للإعلام عن المرأة والأسرة العربية، تحدد الأولويات والسياسات والبرامج التنفيذية في مجال الإعلام المقروء والمرئي والمسموع تجاه قضايا المرأة والأسرة العربية.

٢- إجراء تعديلات جذرية في القوانين المنظمة للعمل الإعلامي مثل قوانين الصحافة والإعلام في العالم العربي بحيث تضم نصوص صريحة تعزز السياسات الإعلامية المتوازنة والمنصفة لقضايا المرأة اتساقاً مع النصوص الدستورية التي تؤكد على مبدأ المساواة بين النوعين الاجتماعيين (المرأة والرجل) والمؤسف أن قوانين الإعلام والصحافة في العالم العربي تخلو من أية نصوص تقضي بتفعيل مبدأ المساواة بين الجنسين في حقل الإعلام سواء في المسؤوليات المهنية أو المواقع القيادية أو الأجور وفرص التدريب أو المشاركة في المؤتمرات المحلية والدولية. بل تقتصر التشريعات الإعلامية على النصوص الخاصة بالشروط القانونية والأخلاقية للممارسة المهنية وحرية الإعلام والصحافة وحقوق وواجبات الصحفيين والإعلاميين المهنية والعلاقة بين السلطة والصحافة والإعلام. وهناك ضرورة

تستلزم إدراج بعض النصوص التي أشارت إليها معظم الدساتير العربية خصوصاً الدستور المصرى الصادر عام ٢٠١٤ والخاصة بتأكيد المساواة بين النوعين الاجتماعيين والتي تمثل خطوة إيجابية نحو إقرار المواطنة وحقوق المرأة.

٣- ضرورة الاهتمام بإعداد برامج تدريبية وتثقيفية للإعلاميين والإعلاميات العرب للنهوض بمستويات الوعي والأداء الإعلامى فى مجال المرأة والأسرة.

المراجع

اعتمدت الدراسة على عدة مراجع نذكر أهمها على النحو التالي:

- (١) مركز بحوث المرأة والإعلام - كلية الإعلام: العنف ضد المرأة في وسائل الإعلام - دراسة من المستوى الثانى (ملخص بأهم المؤشرات) - القاهرة ٢٠٠٩.
- (٢) سمير صالح إبراهيم، تأثير الأفلام المقدمة في التلفزيون على إتجاه الشباب المصرى نحو العنف، ماجستير غير منشورة، (جامعة القاهرة: كلية الإعلام، ١٩٩٧).
- (٣) عزة عبد العزيز عبد اللاه، المسؤولية الاجتماعية للصحافة المصرية: دراسة تحليلية لوظائف الصحافة مع التطبيق على صحيفتى الأهرام و الأهالى خلال الفترة من ١٩٧٨-١٩٨٧، ماجستير غير منشورة، (جامعة أسيوط : كلية الآداب، ١٩٩٢).
- (٤) عزة عبد العظيم محمد، تأثير الدراما التلفزيونية على إدراك الواقع الاجتماعى للأسرة المصرية، دكتوراه غير منشورة، (جامعة القاهرة: كلية الإعلام، ٢٠٠٠).
- (٥) لبنى محمد الكنانى، صورة الأسرة العربية في الدراما التلفزيونية بالقنوات الفضائية العربية وأثرها على إدراك الجمهور العربى للواقع الاجتماعى لها، دكتوراه غير منشورة، (جامعة القاهرة: كلية الإعلام، ٢٠٠٨).
- (٦) مایسة السيد طاهر جمیل، صورة العنف بین الرجل والمرأة كما تقدمها الدراسة العربية فى التلفزيون المصرى، ماجستير غير منشورة، (جامعة القاهرة : كلية الإعلام، ٢٠٠٠).
- (٧) محمد حسام الدين، المسؤولية الاجتماعية للصحافة المصرية، دراسة مقارنة للمضمون والقائم بالاتصال فى الصحف القومية والحزبية من ١٩٩١-١٩٩٤، ماجستير غير منشورة، (جامعة القاهرة: كلية الإعلام، ١٩٩٦).

(٨) عادل فهمى البيومى، الدراما التلفزيونية والاتجاهات نحو العنف الأسرى فى مصر، المجلة المصرية لبحوث الرأى العام، كلية الإعلام، جامعة القاهرة، إبريل / يونيه ٢٠٠٠، ص ٢١٣-٢٦٢.

(٩) جبرى ر.لى، البناء الأسرى والتفاعل: تحليل مقارن، (الكويت : جامعة الكويت، مجلس النشر العلمى، ٢٠٠٦).

(١٠) حسن مصطفى عبد المعطى، الفناخ الأسرى وشخصية الأبناء (القاهرة: دار القاهرة، ٢٠٠٤).

(١١) معن خليل عمر، علم اجتماع الأسرة، (عمان، الأردن : دار الشروق، ١٩٩٤).

(١٢) محمد زين عبد الرحمن، صورة المرأة المصرية فى المجلات النسائية العربية واتجاهات الطالبات الجامعيات العربيات نحوها، المجلة المصرية لبحوث الرأى العام، يناير/ يونيه ٢٠٠٦، ص ٢٨٣-٣٢٤.

صادر للمؤلفة

- ١ - مقدمة في الصحافة الأفريقية (طبعان) - الجمعية الأفريقية ١٩٨٠ - دار الفكر العربى القاهرة. ١٩٨٥.
- ٢ - صور إفريقيا في الصحافة العربية (طبعان) - دار الفكر العربى القاهرة ١٩٨٥.
- ٣ - إسرائيل وإفريقيا (مشارك) - دار الفكر العربى القاهرة ١٩٨٣ م.
- ٤ - الصحافة العربية في الجزائر (طبعان) - معهد الدراسات العربية ١٩٨١ م والشركة الوطنية للنشر بالجزائر ١٩٨٥ م.
- ٥ - مصر وفلسطين (أربع طبعات) عالم المعرفة بالكويت ١٩٨٠ - ١٩٨٥ دار العربى القاهرة ١٩٨٩ ، والمكتبة الأكاديمية القاهرة ٢٠١٠ م.
- ٦ - الصحافة الصهيونية في مصر ١٨٩٧ - ١٩٥٤ (ثلاث طبعات) الثقافة الجديدة ١٩٧٩ - الطوبجى ٢٠٠٤ - جزيرة الورد ٢٠٠٥.
- ٧ - التبعية الإعلامية والثقافية في العالم الثالث (طبعان) - عالم المعرفة - الكويت ١٩٨٤ - دار الفكر العربى القاهرة ١٩٨٩ م.
- ٨ - دراسات في الصحافة المصرية والعربية - العربى القاهرة ١٩٨١ م.
- ٩ - دراسات في الصحافة المصرية المعاصرة - دار الفكر العربى القاهرة ١٩٨١ م.
- ١٠ - تحليل المضمون في الدراسات الإعلامية (مشارك) دار الفكر العربى ١٩٨١ م.
- ١١ - دراسات في الصحافة المصرية والعربية - قضايا معاصرة - دار الفكر العربى - القاهرة ١٩٨٧.
- ١٢ - دراسات في الصحافة العربية المعاصرة - دار الفارابى بيروت ١٩٨٨ م.
- ١٣ - الإعلام بالتنموى في الوطن العربى - دار الفكر العربى القاهرة ١٩٨٦ م.
- ١٤ - المدرسة الاشتراكية في الصحافة - مركز البحوث العربية - القاهرة ١٩٨٦ م.
- ١٥ - الإعلام وقضايا البيئة في العالم العربى - كلية الإعلام جامعة القاهرة - ١٩٩٣ م.
- ١٦ - التعليم الإعلامى وقضايا البيئة - كلية الإعلام وبرامج الأمم المتحدة للبيئة ١٩٩٥ م.
- ١٧ - القوائم بالاتصال في الصحافة المصرية (مشارك) قسم الصحافة كلية الإعلام جامعة القاهرة ١٩٨٩ م.
- ١٨ - الصحافة العربية في الصومال (في موسوعة الصحافة العربية) الأليكسو - تونس ١٩٨٩ م.
- ١٩ - الصحافة العربية في مواجهة الاختراق الصهيونى - دار الفكر العربى القاهرة ١٩٩٤ م.
- ٢٠ - هموم الصحافة والصحفيين في مصر - دار الفكر العربى - القاهرة ١٩٩٥ م.
- ٢١ - قضايا إعلامية معاصرة - دار الفكر العربى - القاهرة ١٩٩٧ م.

- ٢٢- الإعلام والمرأة المصرية في الريف والحضر - دار العربي القاهرة ١٩٩٩ م.
- ٢٣- الإعلام العربي وقضايا العولمة - دار الفكر العربي - القاهرة ٢٠٠٠ م.
- ٢٤- المسكوت عنه في قرية جنوبية - مركز الفسطاط - القاهرة ٢٠٠١ م.
- ٢٥- قضايا الصحافة المصرية في نهاية القرن العشرين - دار العربي ٢٠٠١ م.
- ٢٦- إعلام المقاومة في العالم العربي - دار العربي القاهرة ٢٠٠٣ م.
- ٢٧- النظرية النقدية في بحوث الاتصال - دار الفكر العربي القاهرة ٢٠٠٣ م.
- ٢٨- الدراسات المستقبلية في كتاب تذكاري مهدى للمؤلفة من طلابها الأساتذة بأقسام الصحافة في مصر - بعنوان بحوث معاصرة في الصحافة - دار العربي القاهرة ٢٠٠١ م.
- ٢٩- الإعلام والعولمة البديلة - دار العربي للنشر القاهرة ٢٠٠٦ م.
- ٣٠- الصحافة المصرية - دراسة تاريخية (مشترك) مؤسسة الطوبجي للطباعة القاهرة ٢٠٠٧ م.
- ٣١- المرأة والإعلام في صعيد مصر (جماعي) - دار العربي للنشر القاهرة ٢٠٠٨ م.
- ٣٢- الإعلاميات العربية - شهادات واقعية - دار العربي للنشر - القاهرة ٢٠٠٩ م.
- ٣٣- الإعلام العربي في عصر العولمة الرأسمالية - دار العين - القاهرة ٢٠١٠ م.
- ٣٤- الإعلام الأفريقي في عصر المعلومات (مشترك) - المكتبة الأكاديمية - القاهرة ٢٠١٠ م.
- ٣٥- الصحافة والجامعات المصرية (جماعي) العربي للنشر القاهرة ٢٠٠٩ م.
- ٣٦- المسكوت عنه في مصر المحروسة - جزيرة الورد - القاهرة ٢٠٠٩ م.
- ٣٧- مصر وفلسطين : دراسة تاريخية ومعاصرة من ١٩١٧ - ٢٠٠٩ - المكتبة الأكاديمية - القاهرة ٢٠١٠ م.
- ٣٨- صفصافة - سيرة ذاتية - الهيئة العامة للكتاب ٢٠١٢ م.
- ٣٩- قضايا إعلامية تاريخية ومعاصرة في الوطن العربي - دار الفكر العربي ٢٠١٢ م.
- ٤٠- ثورة يناير وحرية الإعلام - جزيرة الورد - القاهرة - ٢٠١٢ م.

الجوائز التي حصلت عليها المؤلفة :

- ١- جائزة ماندبلا في التحرر الوطني ١٩٩٤ م.
- ٢- جائزة العويس في العلوم الاجتماعية والمستقبلية ١٩٩٦ م.
- ٣- جائزة البحرين عن كتابها (المرأة والإعلام في الريف والحضر) ١٩٩٨ م.
- ٤- جائزة كلية الإعلام التقديرية ١٩٩٧ م.
- ٥- جائزة الدولة للتفوق العلمي ١٩٩٩ م.
- ٦- جائزة الجامعة العربية عن مجمل أعمالها في مجال المرأة والإعلام ٢٠٠٨ م.
- ٧- جائزة جامعة القاهرة التقديرية في العلوم الاجتماعية والإنسانية ٢٠١٠ م.
- ٨- جائزة الدولة التقديرية في العلوم الاجتماعية ٢٠١٤ م.

المحتويات

الصفحة	الموضوع
٣	مقدمة
٥	١- أزمة المواطنة الإعلامية في العالم العربي
١٠	٢- الصحافة المصرية والحكام - إشكالية تتجدد: علاقة الصحافة المصرية بالحكام خلال قرنين
٣٦	٣- حرية الصحافة في الدساتير المصرية (رؤية تاريخية معاصرة)
٤٨	٤- الإعلاميون العرب والجمهور في ظل التعددية
٥٢	٥- أزمة النخب وتهميش الجماهير
٥٦	٦- تصحيح المسار الإعلامي كيف؟
٦٢	٧- نحو خطاب معلوماتي بديل
٦٩	٨- ميادين الثورات العربية - ميدان التحرير نموذجاً
٧١	٩- الصراع بين الوعي والإرهاب
٧٤	١٠- الإعلام وقضايا الفقر والجوع في مصر
٩٠	١١- الجامعات المصرية بين التحديات والقصور الذاتي

- ١٢ - الصورة الإعلامية للمرأة العربية في عصر العولمة
التجليات والتحديات ١٠٣
- ١٣ - الإعلام والمرأة الأفريقية ١١٣
- ١٤ - إشكالية الحرية في كتابات المرأة العربية
(تجربة ذاتية) ١٢٠
- ١٥ - نحو خطاب إعلامي بديل عن قضايا العنف الأسري ١٣٢
- ١٦ هل تحققت المواطنة الإعلامية للمرأة؟ ١٥٢
- صدر للمؤلفة ١٥٨

